كلية الآداب بقنا
قسم التاريخ

تاريخ الأيوبيين والمماليك

إعداد/ أ.م د/ مسعود محمود علي أ.م د/ عمر جمال محمد

مقرر لطلاب كلية التربية عام قسم التاريخ الفرقة الرابعة

لطلاب كلية الآداب قسم التاريخ الفرقة الرابعة

2023/2022م

القسم الأول

الدولة الأيوبية

الفصل الأول

الأيوبيين وقيام دولتهم

ظهور البيت الأيوبي على مسرح الأحداث السياسية

الزنكيون والجهاد الإسلامي ضد الصليبيين:

1- قسيم الدولة آق سُنْقُر مؤسس البيت الزنكي:

ترتبط دراسة تاريخ الأيوبيين ونشأتهم ارتباطًا قويًا بالبيت الزنكي في العراق وبلاد الشام، فلا يُمكن فَهم تاريخ هذه الدولة دون الفهم الجيد لتاريخ الدولة الزنكية ودورها في حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، فعن طريقهم ظهر الأيوبيون فيما بعد. ويرجع تأسيس البيت الزنكي إلى جدهم الأكبر آق سُنْقُر بن عبد الله آل ترغان التركماني- نسبة إلى قبائل السبايو التركمانية، وهو أحد مماليك البيت السلجوقي، ومن أصحاب السُّلْطان السلجوقي مَلك شاه(ملكشاه)[1]، الذي نال منزلة كبيرة ونفوذ لديه؛ نظرًا لأنه قد تربى معه في صغره، ولما تولى السلطة أكرمه وقرّبه وجعله حاجبًا وأحد كبار قادته. وليس أدل على ذلك من قيام الأخير من تلقيبه بـ«قسيم الدولة»- أي الشريك-، وكانت الألقاب في ذلك الوقت« مصونة لا تعطي إلا لمستحقيها» [2].

---

(1) هو السُّلْطان أبو الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سَلْجُوق بن دُقاق، الملقب جلال الدولة، كان من أحسن الملوك السلاجقة سيرة ولُقب بالسُّلْطان العادل. وتوفي في شوال 585هـ/ نوفمبر1189م. وقد ترك مملكة مترامية الأطراف. (ابن خلكان:وفيات الأعيان، ج5، ص283-289 رقم 740؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص10-12).

(2) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص4، ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص11.

بدأ دور قسيم الدولة آق سُنْقُر في الصعود عندما اشترك مع السُّلْطان ملك شاه في الاستيلاء على حلب في سنة479هـ/ديسمبر1086م، ثم قلّده ولايتها في السنة نفسها، وقيل في بداية سنة480هـ/1087م؛ إضافة لسيطرته على بعض المدن الأخرى التابعة لها. فأحسّن السيرة فيها، وأقام العدل، وأصلح شئونها الداخلية وأمّن الطرق، وقضى على المفسدين واللصوص، وأمّن المسافرين وأبناء السبيل، وأبطل المكوس، ورخصت الأسعار، وازدهرت المدينة ورغب الناس في الإقامة بها[3].

بعد ذلك قام آق سُنقر ببعض الأعمال المهمة، من بينها السيطرة على بعض المدن والحصون، غير أن عهده لم يستمر طويلًا، إذ تُشير الأحداث إلى نشوب خلاف بينه وبين تاج الدولة تُتُش بن ألب أرسلان حاكم دمشق، وتطور الأمر إلى صدام عسكري بينهما عقب وفاة السُّلْطان ملك شاه في شوال 485هـ/نوفمبر1092م، حيث اشتعلت الصراعات الداخلية بين أبنائه، بَركيارق(بَكيارُق) والسُّلْطان محمود، إضافة إلى طمع عمهم تاج الدولة في السلطة، وظهر ذلك بوضوح في رغبته في السيطرة على حلب، ولكن صالحه آق سنقر وخطب له على المنابر. وعندما انتهى النزاع بين الأخوين بانتصار السُّلْطان بركيارق انضم آق سنقر إليه عرفانا بجميل أبيه تاركاً تاج الدولة تُتُش، حيث قال لأصحابه« إنما أطعنا هذا الرجل لننظر ما يكون

(3) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص444؛ التاريخ الباهر، ص7-8؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص19؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص140.

من أولاد صاحبنا، والآن فقد ظهر بركيارق، والرأي والمروءة تقتضي بأننا نقصده ونكون معه... » [4].

استمر تاج الدولة تُتُش في محاولاته للسيطرة على حلب وأخذها من قسيم الدولة، فتوجه من دمشق إلى حلب، والتقى الجيشان في 9 جُمادى الأولى 487هـ/1094م، بالقرب من حلب، فهُزم قسيم الدولة ومن معه من القادة أمثال كربوقا(كربوغا) حاكم الموصل وبوزان صاحب الرُّها، ووقع الجميع في الأسر في قبضة تاج الدولة تُتُش، وانتهى الأمر بمقتل قسيم الدولة آق سُنقر في يوم الاثنين 11 جُمادى الأولى 487هـ/1094م، وكان قتله وفاء لسلطانه ملك شاه، وحفظًا لولده بركياروق من بعده[5].

2- عماد الدِّين زنكي وفكرة الجهاد ضد الصليبيين:

لقد مهد الدور المهم الذي لعبه آق سنقر في الحياة السياسة للدولة السلجوقية، ودعم سلاطينها، حتى أنه ضحى بحياته في سبيل الولاء للسلطان السلجوقي بركياروق، أن اعتنى الأخير بابنه الوحيد عماد الدِّين زنكي، الذي كان في سن العاشرة من عمره، وكان يقيم في حلب تحت رعاية مماليك أبيه الذي كانوا يقدرونه. وعندما ا ستولى القائد السلجوقي كربوقا

(4) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص12-13؛ أبو شامة: الروضتين ج1، ص144-145؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص22-23.
(5) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص126-127؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص15.

على الموصل سنة 489هـ باسم السُّلْطان بركياروق، أولى زنكي اهتمامًا خاصًا وقال: «إنه ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته»، وسرعان ما صارت لزنكي مكانة كبيرة لدى حاكم الموصل[6].

أظهر زنكي مهارة عسكرية واكتسب حظوة عند سلاطين السلاجقة، وأخذ يتقلب في الوظائف الكبرى حتى ذاع صيته في عهد السُّلْطان محمود بن محمد بن ملك شاه (511–525هـ)، الذي لمس فيه قدرة عسكرية فاختصه وأكرمه وجعله من كبار قادته، وفي سنة 516هـ/ 1123م، أقطعه واسط وشحنكية[7] البصرة، فقام بحفظهما والإحسان إلى أهلها[8].

وعندما بلغ السُّلْطان محمود عزم الخليفة العباسي المسترشد بالله على جمع العساكر لمنعه من العراق، قام بتجهيز عساكره لقتاله، وعلى الرغم من محاولات الخليفة إرسال عسكر إلى واسط للاستيلاء عليها إلا أن عماد الدِّين زنكي حال دون ذلك وهزمهم وأسر منهم الكثير. وعقب وصول السُّلْطان إلى بغداد دارت بعض الحروب بينهما وبعد ذلك وقع الصلح بينهما، وولى السُّلْطان شحنكية بغداد لعماد الدِّين في ربيع الآخر520هـ، نظرًا لم أظهره من همة كبيرة في القتال، وأصبح بذلك المنصب رقيبًا على الخليفة والقائم بأمره[9].

---

(6) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص15-16.

(7) الشّحنْكيّة: وظيفة تعادل مديرية الشرطة والأمن العام، وهي من الشحن جمع شِحْنَة وهو الحاكم أو من يتولى أمر الشرطة في المدينة والرئيس والقيّم والوكيل، و الشّحْنَة الشرطة وجماعة العسكر، يسمى قائدها رئيس الشّحْنَة أو متولي الشرطة. (السلوك للمقريزي، ج1ق3، ص979، حاشية(3)؛ دوزي: تكملة المعاجم، ج6، ص270؛ دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص96-97).

(8) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص28-29؛ أبو شامة:الروضتين، ج1، ص153-154.

(9) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص215-216؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص237-239، 241.

وما لبث هذا السُّلْطان أن أنعم على زنكي في رمضان 520هـ بإقطاعه الموصل والجزيرة وما يفتتحه من بلاد الشام، وجعله يقوم بالإشراف على ولديه ألب أرسلان وفروخ شاه)، وصار من ذلك الوقت أتابكًا[10] من خواص السُّلْطان، فأخذ يعمل لحساب ولديه بما يكفل له التوطئة لنفسه ليستأثر بالنفوذ باسمهما. وعندما دبّ نزاع بين مسعود وسلجوق شاه ولدي السُّلْطان محمد بن ملكشاه إلى جانب عمهما سنجر حول السلطنة في بغداد، كان زنكي يريد أخذ البيعة لألب أرسلان بن السُّلْطان محمود شاه، ولكن الخليفة المسترشد العباسي اعتذر بأن ألب أرسلان لازال صبيًا، ووقع الاختيار على مسعود الذي تولى السلطنة في العراق وبلاد فارس في كنف ورضا عمه سنجر.

على أية حال، ساءت العلاقة بين السُّلْطان مسعود والخليفة العباسي المسترشد سنة (529هـ)، وبدأ هناك تقارب بين عماد الدِّين زنكي والخليفة، وبلغ هذا التقارب أن وجد زنكي نفسه مضطرًا في الدخول مع الخليفة في صراعه مع السُّلْطان مسعود، ولكن انتهى هذا الأمر بهزيمة الخليفة وعزله وتولية الراشد(529–530هـ)، الذي دخل مع مسعود في نزاع انتهى بعزله وتولية المقتفي(530–555هـ)، وأخفق زنكي في حماية الراشد واضطر إلى الدخول في بيعة المقتفي، وخطب له في الموصل سنة 530هـ، وسعى إلى تحسين علاقته بالسُّلْطان مسعود

([10]) الأتابك: أو الأطابك مصطلح تركي مركب من لفظين(أطا/أتا) بمعنى أب أو شيخ، و(بك) بمعنى أمير أو سيد، فيكون الأتابك هو السيد أو الأمير الأب. (القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص18؛ محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، الطبعة الأولى، دار الفكر ، دمشق، 1990م، ص11). وترجع تسميته بذلك عندما تولى الموصل سلّم إليه السُّلْطان محمود بن محمد بن مَلِكْشاه السَلْجُوقي ولديه ألب ارسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجي ليربيهما، ولهذا قيل له أتابك. (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2،ص328) .

في وقت كان يشعر فيه بضرورة توحيد الموصل والجزيرة والشام لتكوين جبهة إسلامية موحدة تقف في وجه الصليبيين.

لقد شكل الغزو الصليبي صدمة نفسية مؤلمة في نفوس المسلمين، وقد تبلورت اتجاهات المقاومة الإسلامية ضد الصليبيين بظهور عماد الدِّين زنكي أتابك الموصل اعتبارًا من سنة 521هـ/1127م، ليقود حركة الجهاد الإسلامي، وما لبث أن صار أقوى حاكم مسلم في تلك الفترة[11].

وقد تمكن عماد الدِّين زنكي من التغلب على روح الانقسام في بلاد الشام والعراق والجزيرة، ففي سنة521هـ/1127م، تولى الموصل، وفي سنة 522هـ/ 1128م، ملك مدينة حلب وقلعتها، وهو أمر بالغ الخطورة بالنسبة للصليبيين، لأنه بذلك قطع الطريق بين الرّها وغيرها من الإمارات الصليبية، وفي سنة 523هـ/ 1129م، استولى على حماه، ثم توالت فتوحاته، حتى استولى على حمص سنة 532هـ/ 1143م.

ظهور بنو أيوب وعلاقتهم بالأتابك عماد الدِّين زنكي:

ينحدر أصل الأسرة الأيوبية من الأكراد الروادية إحدى البطون الهذبانية من بلدة تسمى دَوِين على آخر حدود أذربيجان، حيث رحل نجم الدِّين أيوب وأخوه أسد الدِّين شيركوه منها

(11) لمزيد من التفاصيل عن عماد الدِّين زنكي وأعماله، انظر: أبو شامة الروضتين، ج1، ص 157-183.

وخدما الأمير مجاهد الدِّين بِهْرُوز شِحنة بغداد ، وكان من دَوِين وتركها ليعمل في خدمة السُّلْطان مسعود السلجوقي، فرأى بِهْرُوز في نجم الدِّين رأيًا وعقلا فولاه قلعة تكريت التي أقطعها له السُّلْطان. وبمرور الوقت اصطدم عماد الدِّين زنكي حاكم الموصل بالخليفة العباسي المسترشد في سنة 526هـ/1132م، انتهى الأمر بهزيمته وأسر عدد من كبير من قواته، فعبر دجلة ودخل تكريت، فأسرع واليها نجم الدِّين أيوب في مساعدته للعودة إلى الموصل، حيث عقد له الجسور على دجلة، وسهل له عبورها. وعندما قتل أسد الدِّين شيركو أخو نجم الدِّين أحد سكان تكريت، لم يكن باستطاعته معاقبة شيركوه نظرًا للعلاقة القديمة بينهما، فلم يكن أمامه إلا طردهما في سنة 532هـ/1138م، في نفس الليلة التي ولد فيها صلاح الدِّين، هذا و لم يجد الأخوين وأسرتهما سوى عماد الدِّين زنكي، الذي رحب بهما وبالغ في إكرامهما وأقطعهما الاقطاعات[12].

وعندما سيطر عماد الدِّين على بعلبك في 4 صفر 534هـ/نوفمبر 1139م، عين نجم الدِّين أيوب والياً عليها، مما مهد الطريق لتوجيه ضربة قوية للكيان الصليبي عن طريق تحرير الرها، وذلك بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوماً في 26 جمادى الآخرة 539هـ/28 نوفمبر 1144م[13]. وكان من نتائج فتح الرُّها قدرة المسلمين على دحر أعدائهم، ومهد الطريق لمن

([12]) المقريزي: السلوك، ج1ق1، ص40-41؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص3-5.

([13]) عن سقوط الرُّها بيد عماد الدِّين زنكي انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص8-9؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 292.

سيأتي بعد عماد الدِّين، وإضعاف الروحة المعنوية للصليبيين، كما ضمن المسلمون السيطرة على طريق المواصلات التي تربط بين شمالي الشام والعراق والجزيرة.

كان ذلك تعزيزًا للجهود الرامية لتوحيد الجبهة الإسلامية، وسرعان ما تم اغتيال عماد الدِّين زنكي على يد بعض خدمه سنة 541هـ/ 1146م، وانقسام مملكته بين ولديه سيف الدِّين غازي الذي استولى على الموصل والجزيرة ، ونور الدِّين محمود وكان من نصيبه حلب.

3- السلطان العادل نور الدِّين محمود:

يُعد عصر السُّلْطان العادل نور الدِّين الشهيد بن عماد الدِّين زنكي(549-569هـ/ 1145- 1174م)، من أفضل العهود التي شهدتها دمشق منذ سقوطها في أيدي العباسيين سنة 132هـ/ 750م. فقد شهد الأعمال الحربية ضد الفرنجة، وكان بمثابة الأساس المتين الذي أدي إلى نصر حطين في عهد السُّلْطان صلاح الدِّين الأيوبي.

فقد ساعدته الظروف على إظهار كفايته في نظر المسلمين وخطره على الصليبيين، وأظهر من العقل وبعد النظر والحكمة، حتى قال عنه النويري« ضبط ناموس الملك إلي غاية لا مزيد عليها»[14]. فقد ركز نور الدِّين محمود معظم نشاطه في ذلك الدور في بلاد الشام، ساعده في ذلك عدم التنافس بينه وبين أخويه، فقنع سيف الدِّين غازي بالموصل، ونصرة الدِّين محمد

(14) النويري: نهاية الأرب، ج27، ص168؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 492.

فقد حكم حران تابعًا لنور الدِّين، في حين الأخ الرابع قطب الدِّين لا يزال في رعاية أخيه غازي بالموصل[15].

عندما قُتل عماد الدِّين زنكي وحاصر مجير الدِّين آبق صاحب دمشق مدينة بعلبك ضاق الأمر على نجم الدِّين أيوب ولم تصل إليه نجدة من أولاد عماد الدِّين زنكي، مما جعله يقوم بتسليمها إليه شريطة أن يمنحه اقطاعًا، وتم له ما أراد، وصار عنده من أكبر الأمراء بدمشق. أما أخوه شيركوه فقد اتصل بصاحب حلب نور الدِّين محمود بن زنكي، الذي رأى فيه شجاعة يعجز غيره عنها، فجعله مقدَّم عسكره.

كان من الطبيعي أن يتوسع نور الدِّين في الشام وأن يصدم بالصليبيين الذين ظنوا أنهم ارتاحوا من كابوس ثقيل بوفاة عماد الدِّين زنكي، وأن ابنه نور الدِّين لا يمتلك من الخبرة والكفاية ما جعله خطرًا عليهم. وهنا نلاحظ أن سياسة نور الدِّين محمود استهدفت محاربة الصليبيين في أنطاكية، وفي ذات الوقت استمالة ود جيرانه في دمشق، وتطبيقًا لهذه السياسة نهض نور الدِّين لاجتذاب معين الدِّين أُنر صاحب السلطة الفعلية في دمشق إلى جانبه، فبدأت السفارات تترد بين حلب ودمشق، حتى انتهى الأمر بالصلح بينهما في سنة 541هـ/1147م، غير أن نور الدِّين لم يكتف بعقد هذه الاتفاقية ، بل عمل على تدعيمها بزواجه من ابنة أنر

(15) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص130-131، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص492.

وتدعى عصمة الدِّين خاتون، وبذلك مهد الطريق لقطع التحالف بين دمشق ومملكة بيت المقدس الصليبية.

أخذ يسدد ضرباته إلى إمارة أنطاكية وأسقط عدة مدن وحصون مما مهد الطريق لحملة صليبية ثانية بعد سقوط الرها وتعرض أنطاكية للخطر النوري. كانت الحملة الصليبية الثانية فيما بين سنتي1147–1149م، بقيادة لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا، ولكن فشلت الحملة في تحقيق أهدافها سنة 1149م.

اتفق الصليبيون على محاصرة دمشق في سنة 543هـ/1148م، فاستنجد معين الدِّين أنر بنور الدِّين في حلب وسيف الدِّين غازي في الموصل، وفي الوقت نفسه قام بتخويف الصليبيين من تسليمها لأبناء عماد الدِّين، وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية للخلافات بين الصلبيين على من يحكم دمشق بعد سقوطها، والأخطاء الاستراتيجية في الحصار.

دور بنو أيوب في الوحدة بين حلب ودمشق:

رأى نو الدِّين أنه لا بد من ضم دمشق إلى حلب لتوحيد الجبهة الإسلامية ببلاد الشام، خاص حرص حكام دمشق على مصالحهم الشخصية وتحالفهم مع الصليبيين.

سنحت الفرصة له بعد تغير الوضع في دمشق عقب وفاة معين الدِّين أنر حاكمها الفعلي في 23 ربيع الآخر سنة 544هـ/28 أغسطس 1149م، وولى أمر دمشق مجير الدِّين أبق

الذي اشتهر بقصر نظره وعدم احترام الرعية له. عندما كان نور الدِّين يستعد للتدخل في أحوال دمشق، بلغه موت أخيه سيف الدِّين غازي صاحب الموصل في جمادى الآخرة سنة 544هـ/ سبتمبر 1149م.

أصبح نور الدِّين محمود أكبر الأتابكة الزنكيين بعد وفاة أخيه غازي في الموصل سنة 544هـ/ 1149م[16]، وتنازل أخيه الأصغر قطب الدِّين مودود عن أملاكه في الشام لقاء وراثته أملاك أخيه غازي بالجزيرة، مما جعله يفكر جديًا في الاستيلاء على أتابكية دمشق.

وعندما انصرف نور الدِّين محمود لضم دمشق استعان بالأخوان أيوب وشيركوه، فكاتب هذا الأخير أخاه أيوب وجعله يقدم العون لنور الدِّين الذي نجح في خطته بما قدمه هذا الرجلان، فارتفع قدرهما عند نور الدِّين. حيث نجح نور الدِّين محمود في سنة 549هـ/ 1154م من دخول دمشق، واستخلاصها من حكمها مجير الدِّين أبق، وعين نجم أيوب حاكماً عليها شيركوه نائباً عنه، وصلاح الدِّين رئيساً لحاميتها، وبهذا تحولت دمشق من موقفها السلبي تجاه الصليبيين إلى وضع ايجابي تقود به حرب الاسترداد بشكل حاسم[17].

وكان من نتائج ضم دمشق، أن أصبحت الدولة النورية متصلة من الشمال للجنوب، حيث صار بإمكان نور الدِّين أن يوجه ضرباته لأعدائه، وفتح هذا الإنجاز الطريق نحو القاهرة،

([16]) أبو شامة: الروضتين، ج2، 230-235، ابن الأثير: الكامل، ج9، ص24.

([17]) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص125-127؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص5-6؛ أحمد الأوتاني: دمشق في العصر الأيوبي ، دراسة سياسية ، اقتصادية ، اجتماعية، ثقافية، الطبعة الأولى، دار التكوين، دمشق، 2007، ص 47.

التي أصبحت محط أطماع من جانب نور الدِّين والصليبيين على حد سواء، كما قامت للمرة الأولى في بلاد الشام منذ أن وطأها الصليبيون دولة إسلامية موحدة مركزها دمشق، حقق نور الدِّين التوازن بين المسلمين والصليبيين.

أصبحت دمشق في أواخر عهده المدينة الأولى في المشرق الإسلامي، التي تقود حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، كما شهدت المدينة في عهده نهضة حضارية علمية وعمرانية واقتصادية، فقد أنشئت فيها المدارس والمساجد ودور الحديث والبيمارستان النوري، وأقام دار العدل، ودار الحديث النورية، التي تُعد أول جامعة لعلوم الحديث في التاريخ الإسلامي. كما أوقفت فيها الأوقاف الواسعة على وجوه الخير، على الرغم من تعرض البلاد الإسلامية للغزو الصليبي. في الوقت ذاته أخت دمشق تستعيد مكانتها السياسية والعسكرية في العالم الإسلامي، فعاد إليها النشاط التجاري، وازدهرت فيها الصناعات والحرف، وتجددت فيها العمارة، وجعلها عاصمته، ونشر فيها العدل وأبطل المكوس[18]. وبرزت في المدينة النهضة العلمية في مجالات الدِّين والتصوف والعلم والأدب، وعلى هامش النهضة العلمية التي قامت بدمشق في العصر الزنكي ظهر علماء دمشق في تلك الفترة ممن أسهموا في كتابة تاريخ مدينتهم[19].

([18]) أبو شامة : الروضتين، ج1، ص110، 288.
([19]) أحمد الأوتاني: دمشق في العصر الأيوبي ، ص 49.

بعد ضم نور الدِّين دمشق وتوحيد بلاد الشام أصبح شغله الشاغل إيجاد وحدة كاملة وشاملة بين بلاد الشام ومصر ، فقام بإرسال ثلاث حملات عسكرية إلي مصر تمكنت من إكمال الوحدة، بقيادة أسد الدِّين شركوه، وابن أخيه يوسف بن أيوب (صلاح الدِّين).

دور بنو أيوب في الوحدة بين مصر والشام:

بعد أن ضم نور الدِّين محمود دمشق وأعمالها أخذ يفكر في الوحدة بين مصر والشام والعراق؛ لتصفية الكيان الصليبي، و كانت الدولة الفاطمية في هذه الفترة في حالة من الضعف والتدهور ؛ في الوقت نفسه أدرك الصليبيون خطورة ضم نور الدِّين لمصر، مما أدى إلى جعلها ميدانًا للصراع والتنافس بينهما.

كانت الدولة الفاطمية تعاني آلام الموت البطيء منذ أن مني سلطانهم السياسي بضعف شديد على اثر أحداث الشدة العظمى (457–464هـ)، وما أعقبها من تبدل أحوال الخلافة ووقوعها تحت سيطرة الوزراء الذين باتوا أداة فعالة في تحريك سياستها الداخلية والخارجية مما جعل مكانة الوزراء في مصر مطمعًا لكبار رجال الدولة، وانتهى الأمر بأن تنافس هؤلاء حول هذا المنصب، وكان النزاع الذي نشب بين شاور وزير الخليفة الفاطمي العاضد(555–

567هـ) وضرغام دوره في افساح المجال أما بني أيوب لخوض مرحلة جديدة في وقت كانت الوحدة بينهم دافعة لهم للمضي قدمًا نحو الارتقاء.

إذ تُشير الأحداث إلى تولى طلائع بن رزيك والي الأشمونيين والبهنسا(من قرى مركز بني مزار بالمنيا) –وهو من أصل أرمني– الوزارة الفاطمية ، ولم يزل صاحب السلطة الفعلية في مصر حتى توفي الخليفة الفائز سنة 555هـ/1160م، وهو في الحادية عشرة من عمره، فأقام طلائع في الخلافة العاضد لدين الله ابن عم الفائز، الذي لم يتجاوز التاسعة من عمره، وزوجه ابنته، ولم يزل يسيطر على الدولة حتى أساء السيرة واستبد بالحكم، حتى دبرت إحدى عمات الخليفة وتدعى ست القصور على قتله، فرتبت له من قتله في أحد دهاليز القصر في رمضان سنة 556هـ/سبتمبر 1161م.

أدى مقتل طلائع بن رزيك إلى فتح باب النزاع بين القوى المتنافسة على السلطة في مصر، حيث تولى ابنه العادل الوزارة ولقب بمجد الإسلام، غير أنه أساء السيرة، فقام شاور بن مجير السعدي حاكم قوص– وهي عاصمة الصعيد آنذاك– بجمع أمراء الصعيد والعربان وتوجه للقاهرة ودخلها، فتغلب على العادل وأستطاع أن يحل محله في الوزارة بعد أن أمر بقتله في المحرم 558هـ/ يناير 1163م، وانقرضت به دولة بني رزيك.

غير أن شاور ما لبث أن استبد بالحكم وأساء السيرة، فقام ضرغام بن عامر قائد الجنود البرقية نسبة إلى برقة غربي مصر، فخرج على شاور وتمكن من هزيمته، فأسرع الأخير للشام في سنة 558هـ/1163م للاستنجاد بنور الدِّين محمود لإعادته إلى منصبه.

توجه شاور إلى دمشق و التقى بالسلطان العادل نور الدِّين محمود مستنجدًا به، حيث طلب منه قوة عسكرية يستعين بها على ضرغام الذي انتزع منه الوزارة، وقد عرض عليه في مقابل ذلك أن يكون له ثلث خراج البلاد، ويكون معه من أمراء الشام من يقيم معه في مصر، ويتصرّف هو بأوامر نور الدِّين واختياره. وقد تردد نور الدِّين محمود في إجابة شاور إلى مطلبه خوفًا من تعرض قواته للأخطار من قبل مملكة بيت المقدس، ولكنه لم يلبث أن وافق تحقيقًا لخطته الرامية إلى توحيد الجبهة الإسلامية في مصر والشام لاستئصال شأفة الكيان الصليبي، وذلك بإحكام الحصار حوله من الشمال والجنوب، ويرجع الفضل لأسد الدِّين شيركوه في دفع مخاوف نور الدِّين محمود بعيدًا.

1-حملة شيركوه الأولى على مصر 559هـ/1164م:

خرجت الحملة بقيادة أسد الدِّين شيركوه وبصحبته ابن أخيه يوسف صلاح الدِّين، في جمادى الآخرة 559هـ/أبريل1164م، وسار معهم نور الدِّين محمود لمحاربة الفرنج ليشغلهم عن التعرض لأسد الدِّين شيركوه أثناء مسيره إلى مصر في الوقت نفسه قام ضرغام بالاستنجاد بالصليبيين وتعهد بدفع جزية يقررها الملك عموري الأول، وفق ذلك تصير مصر تابعة للصليبيين.

أخذ شيركوه في السير إلى مصر عن طريق الشّوبك حتى نزل أيلة، وسار منها إلى السويس، ثم وصلت الحملة إلى بلبيس ، ثم اتجه بقواته إلى القاهرة وتحت أسوار ها حدثت معركة عنيفة انتهت بهزيمة ضرغام، ولقي مصرعه في جُمادى الآخرة 559هـ/1164م، ودخل شاور منتصرًا، وأعيد إلى منصبه في الوزارة. وهنا أرسل إليه شيركوه يقول: «قد طال مقامنا في الخيم وضجر العسكر من الحرّ والغبار»، ويطلب منه ما وعد به السلطان، فأرسل إليه ثلاثين ألف دينار وطلب منه الرحيل، غير أن شاور غدر بأسد الدِّين شيركوه وطلب منه الخروج من مصر، فبعث يقول له: « إنّ الملك العادل نور الدِّين أوصاني عند انفصالي عنه، إذا ملك شاور تكون مقيمًا عنده، ويكون لك ثلث مُغَلّ البلاد، والثّلث الآخر لشاور والعسكر، والثلث الثالث لِصاحب القصر يصرفه في مصالحه»، فأنكر شاور ذلك، غير أنه شيركوه أرسل ابن أخيه صلاح الدِّين بطائفة من الجيش يجمع الغِلال والأتبان ببلبيس، فأمر شاور بإغلاق أبواب

القاهرة. وأرسل إلى الصليبيين بقيادة عموري ملك بيت المقدس، وأخذ يخوفه من نور الدِّين، ووعده ببذل الأموال له[20].

جاء عموري في رمضان 559هـ/أغسطس 1164م، وفور وصوله اتصل بشاور، واتفقا على حصار شيركوه الذي رجع إلى بلبيس وقد اتخذها قاعة له، وبعد حصار دام حوالي ثلاثة أشهر، وقع الصلح بين الطرفين، حيث اتضح لشيركوه أن الموقف ليس بصالحه، لأن المؤن الباقية غير كافية، أما عموري فقد حرص على الانسحاب بعد أن قام نور الدِّين بانتهاز فرصة تغيبه في مصر وشدد هجماته على المعاقل الصليبية بالشام، وأخذه حارم. غادر شيركوه مصر في ذي الحجة وهو يحدث نفسه بالعودة إليها، وحقده على شاور بعد أن ثبت غدره[21].

1- حملة شيركوه الثانية على مصر 562هـ/1167م:

كانت رغبة أسد الدِّين شيركوه كبيرة في العودة مرة أخرى إلى مصر، حيث وضح له حالة الضعف التي تعانيه وأهميتها في الجبهة الإسلامية، وأن يكون نائبًا لسيده نور الدِّين فيها ، إلى جانب تشجيع الخليفة العباسي لنور الدِّين في إسقاط الخلافة الفاطمية الشيعية.

انتهز شاور فرصة خروج أسد الدِّين شيركوه وعموري الأول من مصر، فظلم الناس وأخذ أموالهم، فجهز الملك العادل بنور الدِّين محمود الأمير أسد الدِّين شيركوه على رأس جيش

([20]) المقريزي: إتعاظ الحنفا، ج3، ص273-276.
([21]) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص97-98.

قوي لقصد مصر، وهو ما عُرف بحملته الثانية في ربيع الأول 562هـ/ يناير 1167م، ومعه ابن أخيه صلاح الدِّين، فأرسل عموري يبلغ شاور بخبر الحملة فأرسل إليه الأخير يطلب مساعدته ويوضح له خطورة سقوط مصر في أيدي نور الدِّين، فسار عموري إلى مصر ووصل بلبيس وانضم إلى شاور وأقاموا ينتظرون شيركوه، لكن الأخير اتجه في السير جنوبا فعبر النيل عند أطفيح بالجانب الغربي ونزل بالبلاد الجيزية قبالة الفسطاط وأقام بها خمسون يومًا. ثم توجه جنوبًا إلى الصعيد حتى الأشمونيين(ملوي بالمنيا) في موضوع يعرف بالبابين، وكانت قوات شاور وعموري تفوق في العدد والعدة، وحاول شيركوه أخذ رأي قواته في القتال أو العودة للشام فانتهى الأمر على القتال، وانتهى الأمر بهزيمة الصليبيين وشاور بعد خطة محكمة من جانب شيركوه وابن أخيه صلاح الدِّين ومن معهم من القادة، وذلك في 25 جمادى الآخرة 562هـ/18 أبريل1167م.

ترك شيركوه المنهزمين ولم يتعقبهما ظنًا ذهاب عموري الأول إلى بيت المقدس، ولو تعقبهما في الحال لدخل القاهرة وملكها، وإنما توجه شيركوه إلى الإسكندرية واستقبلها أهلها طائعين لمحبتهم للمذهب السني وكراهتهم للمذهب الشيعي، وتأييدًا له ضد شاور الذي تحالف مع الصليبيين. ترك شيركوه ابن أخيه صلاح الدِّين نائبًا عنه بالإسكندرية، واتجه هو إلى الصعيد جمع فيه الغلال والأموال حيث تقوى بها، وقد حدث ما توقعه شيركوه من اتجاه الحليفان شاور وعموري الأول لحصار صلاح الدِّين في الإسكندرية، وضيقا عليه الحصار من

البر والبحر ثلاثة أشهر، ساء فيها موقف صلاح الدِّين، حتى أرسل لعمه في الصعيد في قوص يطلب منه النجدة، فتوجه لنجدته مع عربان الصعيد، مما أجبر شاور وعموري على رفع الحصار. لم يجد شيركوه وعموري إلا الصلح نظرًا لسوء موقفهما، خاصة تعرض الممتلكات الصليبية لهجمات نور الدِّين الذي أرادأن يخفف الضغط الصليبي على مصر، وقد بذلوا لشيركوه خمسين ألف دينار، و اشترط عليهم أن الفرنج لا يقيمون في مصر ولا يتسلمون منها قرية واحدة، ثم غادر في ذي القعدة إلى الشام.

بعد مغادرة أسد الدِّين شيركوه مصر إلى دمشق اتفق شاور مع الصليبيين بقيادة عموري الأول على يكون للصليبيين شحنة(حامية) تكون أبوابها بيد فرسانهم، وأن يكون لهم من دخل مصر في كل سنة مائة ألف دينار. وعلى الرغم من خيانة شاور إلا ابنه الكامل شجاع اتصل بنور الدِّين محمود متبرئا من أفعال أبيه وتحالفه مع الصليبيين، ويبدو أن ذلك بالتفاق مع أبيه، أما الخليفة الفاطمي العاضد فكان كالمحجور عليه[22].

2- حملة شيركوه الثالثة على مصر 564هـ/1169م:

بعد انسحاب شيركوه وعموري الأول من مصر صار كل منهما متمسكًا بفكر العودة إليها، فقد اطلع الصليبيون من خلال وجود الحماية العسكرية الموجودة على أبواب القاهرة

(22) أبو شامة: عيون الروضتين، القسم الأول، ص281-282؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص148-152؛ المقريزي: إتعاظ الحنفا، ج3، ص282-287 .

على الضعف التي تعانيه مصر في تلك الفترة، وأصبح من السهولة السيطرة عليها، وقد أرسلوا إلي ملكهم بخصوص ذلك ولكن عموري تردد في الزحف عليها خاصة بأن الجزية التي كان يدفعها شاور كافية للإنفاق على مملكته وحروبه ضد نور الدِّين محمود في الشام.

غير أن عموري الأول غير رأيه وصمم على التوجه لمصر لغزوها، فدخل بلبيس في صفر 564هـ/نوفمبر 1168م، وحاصرها ثلاثة أيام واقتحمها ونهبها وقتل الكثير من أهلها، مما دفع المصريين في الدفاع عن القاهرة. ثم زحف عموري للفسطاط ولكن شاور أمر بحراقها بعد أن طلب من أهلها الانتقال إلى القاهرة، فحرقت الفسطاط بعد أن اشتعلت فيها النيران لمدة 54 يومًا. وقام عموري بمحاصرة القاهرة وضيق على من فيها، فأرسل إليه شاور يذكره بمحبته ومودته والعلاقة الودية التي كانت تربطهما، ويشير عليه بالصلح وأخذ مالًا وإلا سلم البلاد لنور الدِّين، فأجابه إلى الصلح، وقدم له عرضًا سخيًا يدفع بمقتضاه ألف ألف(مليون) دينار مقابل الانسحاب من مصر، وعجل له مبلغ مائة ألف دينار.

وكان الخليفة الفاطمي العاضد قد أرسل إلى نور الدِّين محمود يستنجد به من الغزو الصليبي، وتعهد له أن يتنازل له عن ثلث خراج مصر، وتكون نفقات الجند خارجة عن ثلث

البلاد المقر لنور الدِّين، والإذن لأسد الدِّين بالإقامة عنده مع جنده وقد أرسل العاضد شعور النساء إمعانا في إثارة همته[23].

أمر نور الدِّين بإعداد حملة ثالثة بقيادة أسد الدِّين شيركوه قوامها ثمانية آلاف جندي ومعه ابن أخيه صلاح الدِّين، الذي خرج كارها نظرًا لما عاناه في الحملتين السابقتين، ولم يدر صلاح الدِّين أن ذلك من حسن حظه وأن سيكتب مستقبله الزاهر في مصر. وقد ذكر المؤرخ بهاء الدِّين ابن شداد أن صلاح الدِّين أخبره عن هذه الحملة وخروجه مع عمه بقوله: « كنت أكرهَ الناس للخروج في هذه الدفعة، وما خرجتُ مع عمّي باختياري »[24].

وصلت أخبار الحملة عموري الاول الذي أراد الانقضاض عليها بمباغتة أسد الدِّين، غير أن شيركوه غير طريقه ووصل القاهرة فاستقبله أهلها مرحبين، فاضطر عموري الجلاء بجيشه من مصر نظرًا لسوء موقفه ووقوف المصريين مع شيركوه وميلهم إليه.

حاول شاور التودد لأسد الدِّين شيركوه ومحاولة تدبير مؤامرة لقتله غير أن ابنه الكامل شجاع نهاه عن ذلك، في الوقت نفسه أحس شيركوه خيانة شاور ومواقفه السابقة معه، فاتفق ابن أخيه صلاح الدِّين يوسف وعز الدِّين جُرْديك على قتله، مؤامرة لقتله، عن طريق الذي

---

(23) أشارت بعض الروايات إلى قيام الوزير شاور بكتابة رسالة إلى السلطان نور الدِّين يستحثه فيها إرسال حملة عسكرية لإنقاذ مصر، وأنه أرسل مع الكتب «ذوائب نساء أهل القصر مجزوزة» إمعانا في إثارة همته، ثم أرسل إليه الخليفة الفاطمي يعرض عليه ثلث خراج البلاد وإقامة عسكره بمصر .في حين ذكر البعض أن الخليفة الفاطمي هو الذي تولى هذا الأمر مع الكامل ابن شاور دون علم والده. (راجع: ابن الاثير: التاريخ الباهر، ص138؛ أبو شامة : الروضتين، ج2، ص33-34؛ابن واصل:مفرج الكروب، ج1،ص158؛ المقريزي: إتعاظ الحنفا، ج3، ص293).

(24) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص101.

وبعض الجند، حيث قاموا بإبلاغه أن أسد الدِّين ذهب إلى القرافة إلى ضريح الإمام الشافعي فقال نمضي إليه، وفي الطريق قبضوا عليه، وأخذوه أسيرًا إلى المخيّم، وانتظروا موافقة شيركوه، الذي جاءه من الخليفة الفاطمي العاضد أحد الخدم يطلب منه رأس شاور وقال له: « هذا غلامُنا ولا خير فيه لك ولا لنا، فأمضِ حكم الله فيه » ، فقتل يوم السبت السابع عشر من ربيع الأول سنة 564هـ/يناير1169م، وبعد ذلك دخل شيركوه القصر، وتقلد الوزارة للخليفة الفاطمي العاضد.

وزارة وزارة أمير الجيوش الملك المنصور أسد الدِّين شيركوه في مصر:

بعد مقتل شاور، كان من الطبيعي أن يتقلد أسد الدِّين شيركوه الوزارة للخليفة العاضد الفاطمي في سابع عشر ربيع الآخر سنة 564هـ ولُقِّب الملك المنصور أمير الجيوش، فأخذ ينظم البلاد ويولي القادة الشاميين الأقاليم، وأقطع البلاد لعساكره، وأطلق يد ابن أخيه صلاح الدِّين في تصريف أمور الدولة لكفايته ومهارته السياسية. ولكن المقادير شاءت ألا يبقى شيركوه في الوزارة سوي شهرين وخمسة أيام حيث توفي فجأة في يوم السبت الثاني والعشرين من جُمادى الآخرة سنة 564هـ/1169م، بعد أن أدى دوره في بناء الوحدة بين مصر والشام[25].

وزارة صلاح الدِّين الأيوبي في مصر 564هـ/1169م:

(25) ذكر القاضي بهاء الدِّين ابن شداد أن أسد الدِّين كان كثير الأكل، شديد المواظبة على أكل اللحوم الغليظة، وتتواتر عليه التُّخَم والخوانيق(أي يحدث في المبلغ ضيق)، فأصابه خانوق عظيم مات منه، وقيل مات فجأة.(النوادر السلطانية، ص104).

وجد الخليفة العاضد في صلاح الدِّين الأيوبي الشخصية المناسبة لكي يتولى الوزارة خلفًا لعمه أسد الدِّين، الذي لم يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره، ظنًا منه أنه قليل الخبرة وعدم معرفة شئون السياسة. إذ تُشير الأحداث إلى اختلاف أهل القصر حول الشخصية التي تتولى الوزارة بعد أسد الدِّين شيركوه، كذلك رغبة بعض الأمراء الشامية في تقلدها، فاجتمع مماليك شيركوه على صلاح الدِّين وطالبوا وزارته، فاتفق الرأي على ذلك، فأرسل إليه العاضد وخَلَعَ عليه الوزارة، ونعته بالملك النَّاصر، وذلك يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من جُمادى الآخرة. وقد واجه صلاح الدِّين بعض الصعاب أثناء توليه منصب الوزارة وهي:

1-مؤامرة مؤتَمَن الخلافة جوهر:

عندما تولى صلاح الدِّين الوزارة ضايق أهل القصر وأثقل عليهم، ووطد نفوذه في مصر بالإحسان للعسكر الشامي والمصري، وأقطع عسكره الإقطاعات، وبذلك أحكم قبضته على الجند، وسيطر على أمور الدولة، فثار الأستاذ مؤتمن الخلافة، وهو أكبر خدام القصر والمتحكم فيه، وموضع ثقة الخليفة الفاطمي العاضد، وكان نوبيًا خَصيًا، ، فاتفق المتآمرون على مكاتبة الملك عموري الأول والصليبيين ودعوتهم إلى مصر، على أن يخرج صلاح الدِّين إلى لقائهم ثم يقبضوا على من بقي من أصحابه الأسدية والصلاحية بالقاهرة.

غير أن صلاح الدِّين علم بهذه المؤامرة بعد أن وقعت الرسالة التي أرسلها مؤتمن إلى الصليبيين، فشدد الرقابة عليه، وأرسل جماعه من جنده هاجموه وقتلوه، وذلك في أواخر ذو القعدة سنة564هـ/1169م. ونتيجة لذلك ثار الجند السودانيون بالقاهرة تعصبًا لمقتل قائدهم، وكان عددهم يزيد عن50 ألفا، وزحفوا إلى دار الوزارة، فخرج إليهم شمس الدولة توران شاه ودارت معارك كبيرة بينهم في بين القصرين بالقاهرة، وأحرق حارتهم المنصورة خارج باب زويلة وبها منازلهم وأولادهم و أموالهم ، فضعف موقفهم، وتوجهوا إلى الجيزة فتعقبهم توران شاه في طائفة من العسكر حتى أبادهم إلا من استطاع منهم الهرب. كما قام صلاح الدِّين بإحراق دار الأرمن حرس الخليفة، لأنهم شاركوا برمي السهام، وأخذ صلاح الدِّين في السيطرة على دور العبيد والأرْمَن والأمراء وأسكن قواته فيها، وضعف موقف العاضد وساءت أحواله.

2-الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط 565هـ/1169م:

بعد أن نجح صلاح الدِّين في القضاء على مؤامرة مؤتمن الخلافة جوهر و السودانيين والأرمن، تعرضت مصر لخطر شديد، ذلك أن الصليبيين وجدوا في خطورة في الوحدة بين مصر والشام، وأن الخطر الداهم أخذ يهددهم من الشمال والجنوب، مما جعل الملك عموري الأول ملك بيت المقدس يبعث إلى ملوك أوربا، حتى لبى استغاثته الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنيين للاشتراك معه في غزو مصر، وجهز أسطول كبير من السفن لمهاجمة مصر من البحر،

ولكن أبطأ الصليبيين تجهيز قواتهم مما أسهم في معرفة صلاح الدِّين نواياهم. اتجهت الحملة لحصار إلى دمياط في صفر565هـ/ 1169م، فبعث صلاح الدِّين ابن أخيه تقي الدِّين عمر بن شاهنشاه وشهاب الدِّين الحارمي خاله وأمدهم بالسلاح والرجال والأموال، و تخوف من مغادرة القاهرة خوفًا من خروج المصريين عليه. في الوقت نفسه قام نور الدِّين بالإغارة على الممتلكات الصليبية في الساحل الشامي، بالإضافة إلى إرساله طائفة من العسكر إلى مصر، كما ساند الخليفة العاضد صلاح الدِّين وأمده بالأموال والثياب، حتى قال عنه صلاح الدِّين : «ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل لي مدّة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها». ثم أخذت القوات البيزنطية تعاني النقص الحاد في المؤن والأقوات منذ أن وصلت دمياط، مع تتابع الامداد إلى دمياط من القاهرة والشام ثم حدث نزاع بين عموري وقائد القوات البيزنطية، فقررت الحملة الرحيل عن دمياط بعد محاصرتها إحدى وخمسين يومًا[26].

بعد فشل الحملة الصليبية سعى صلاح الدِّين إلى تدعيم مركزه في مصر، أرسل إلى نور الدِّين يبشره برحيلهم، وطلب منه إرسال أسرته بالشام (أباه وأقاربه)، فأجابه إلى مطلبه، ووصلوا إلى مصر في جُمادي الآخرة 565هـ/1170م، فجعل أباه على بيت المال، وأقطع أخوته وأقاربه الإقطاعات.

صلاح الدِّين الأيوبي وزوال الخلافة الفاطمية:

(26) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص179-183؛ المقريزي: إتعاظ الحنفا، ج3، ص315-316؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص560-561.

بعد أن استقرت الأمور لصلاح الدِّين وجه صلاح الدِّين اهتمامه للقضاء على المذهب الشيعي الإسماعيلي والخلافة الفاطمية، فأنشأ مدرسة لتدريس المذهب الشافعي، وأخرى لتدريس المذهب المالكي، وأبطل الأذان (بحيّ على خير العمل محمد وعليّ خير البشر). ثم أمر بذكر الخلفاء الراشدون في الخطبة يوم الجمعة، وأسند القضاء بالديار المصرية إلى قاضي القضاة صدر الدِّين عبد الملك بن دِرباس الشافعي، وأناب عنه في سائر البلاد قضاة شافعية، فاستعاد المذهب السني قوته، وأخذ المذهب الإسماعيلي في الاختفاء تدريجيًا، فكان لهذه السياسة أثرها في زوال الخلافة الفاطمية، فقد انهارت منذ ذلك الوقت سلطة الخليفة الفاطمي، وعلى الرغم من رغبة نور الدِّين إحياء الخلافة العباسية وطلب الخليفة المستضئ بأمر الله العباسي منه ذلك، إلا أن صلاح الدِّين ظل متخوفًا من ذلك، حتى أصر نور الدِّين فقام صلاح الدِّين بإعلان الخطبة للخليفة العباسي وإبطالها للخليفة الفاطمي في أول جمعه من المحرم على يد رجل يقال له الأمير العالم (اختلاق الروايات حول اسمه وأصله)، ثم الجمعة التي تليها في أرجاء القاهرة والفسطاط، وكان العاضد مريضًا مرض الموت، ولم يشعر بما حدث حوله، حتى توفي في العاشر من المحرم567هـ/سبتمبر 1171م[27].

أحدث زوال الخلافة الفاطمية الشيعية ردود فعل كبيرة داخل الخلافة العباسية في بغداد، حيث قام الخليفة العباسي المستضئ بتزيين بغداد وأرسل الخلع الثمينة لنور الدِّين وصلاح

([27]) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص109؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص200-202؛ المقريزي: إتعاظ الحنفا، ج3، 317، 328؛ محمد جمال الدِّين سرور: مصر في عصر الدولة الفاطمية، ص114-116.

الدِّين ومعهما الأعلام السود شعار العباسيين، والهدايا الثمينة لنور الدِّين سيفين(مصر والشام) وطوق ذهب.

الوحشة بين نور الدِّين وصلاح الدِّين:

بعد زوال الخلافة الفاطمية 567هـ/1171م، تخلص صلاح الدِّين من وضعه المزدوج وزيرًا للخليفة العاضد، ونائبًا لنور الدِّين محمود، وكان عليه أن يحدد موقفه منه وأن يختار بين البقاء على ولائه لسيده نور الدِّين محمود، وفي هذه الحالة عليه أن يتقبل نقله من مصر في أيه لحظة وإحلال غير محله في مصر، وأن يطيع سيده نور الدِّين وخاصة أموال مصر وإرسالها المستمر إليه، أو أن يختار صلاح الدِّين الخروج على سيده ويستقل بمصر، وعليه أن يستعد لخوض معركة كبيرة معه وتحمل عواقب ذلك. أما عن مظاهر الوحشة فبدأت عندما قام صلاح الدِّين بإرسال رسولاً إلى بغداد يحمل للخلفية العباسي البشارة بسقوط الخلافة الفاطمية، وتخطى صلاح الدِّين بذلك سيده نور الدِّين.

وفي سنة 567هـ/1171م، أرسل نور الدِّين له لكي يقوم بحصار حصن الشوبك، فخرج صلاح الدِّين وضيق الحصار، ولم تسطع الحامية العسكرية المقاومة، فطلبت إعطائها مهلة عشرة أيام للتسليم، ولكن صلاح الدِّين رجع إلى مصر بعدما علم بقدوم نور الدِّين من دمشق وخوفه من أن يقبض عليه وأن يعزله، ويبدو أن أصحابه قد أشاروا عليه بذلك وأرسل صلاح

الدِّين هدايا إلى نور الدِّين واعتذر له بسبب الأوضاع في مصر. ثم عقد صلاح الدِّين اجتماع مع أهله وعشيرته وفيهم أبيه وخاله وأخوته حول العلاقة المضطربة مع سيده نور الدِّين ، فقال تقي الدِّين عمر بمحاربة نور الدِّين، فصاح نجم الدِّين في وجه وقال: « أنا أبوك وهذا شهاب الدِّين خالك، أتظن في هؤلاء كلهم من يحبك ويري الخير مثلن؟ فقال: لا فقال: والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدِّين ، لم يمكننا إلا أن نترجل إليه ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا». ثم خلا نجم الدِّين بصلاح الدِّين ووبخه بأنه جمع هذا الجمع الكبير وأوضح ما بدخله لهم، وطلب من صلاح الدِّين إظهار الولاء والإخلاص لنور الدِّين، ففعل ما أشار إليه أبيه. فقام صلاح الدِّين في سنة 568هـ/1172م، بإرسال هدايا ثمينة لنور الدِّين من الحيوانات النادرة وذخائر القصر الفاطمي، ونازل الكَرَك والشوبك[28].

أراد صلاح الدِّين إيجاد ملجأ لأسرته إذا ساءت الأحوال بينه مع نور الدِّين، فأرسل أخاه تورانشاه لفتح النوبة سنة 568هـ/1172م ، فوجدها قليلة الجدوى وفي الوقت نفسه القضاء على بقايا الجند السودانيين. وعلى الرغم من الهدوء المؤقت في العلاقة بينهما إلى أن سرعان ما توترت هذه العلاقة، إذ تُشير الأحداث إلى رحيل صلاح الدِّين بعساكره إلى حصار الكَرَك في شوال 569هـ، والاجتماع بنور الدِّين عليه، ولكنه بعد حصاره انسحب عندما علم بقدوم

([28]) ابن ا لأثير: الكامل، ج10، ص35-36؛ التاريخ الباهر، ص158؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص221-224؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص21-23. في حين ذكرت بعض المصادر أن الحصار كان لحصن الكَرَك وأن صلاح الدِّين لم يخرج لمحصارته وأرسل رسالة لنور الدِّين يعتذر له عن المجئ . ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص158؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص148-149؛ المقريزي: السلوك، ج1ق1، ص48-49؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص213-214.

قوات نور الدِّين، متعللًا بمرض والده مرض الموت، فأحس نور الدِّين بسوء نوايا صلاح الدِّين، الذي فكر في البحث عن مكان آمن يلوذ به إذا هاجمه نور الدِّين، فأرسل أخاه توران شاه إلى اليمن ففتحها 569هـ/1173–1174م، وفي الوقت نفسه القضاء على المذهب الشيعي هناك وبقايا الفاطميين[29]. والحقيقة أن صلاح الدِّين كان صادقًا حيث توفي والده بعد رجوعه من حصاره للكرك.

مؤامرة رجال الدولة الفاطمية: تعرض صلاح الدِّين لمؤامرة خطيرة بالقاهرة في سنة 569هـ/1174م، دبرها جماعة من الشيعة بقايا الفاطميين منهم عبد الصمد الكاتب، وقاضي القضاة العوريس ، وداعي الدُّعاة ابن عبد القوي، وبقايا الجند السودانيين، وخدام القصر الفاطمي بالإضافة إلى الشاعر عمارة اليمني، واتصلوا بسنان زعيم الباطنية (الحشيشية) ليرسل من يقوم باغتيال صلاح الدِّين، كما قاموا بالاتصال بالكيان الصليبي في في بلاد الشام، وملك صقلية وليم الثاني النورماني ليهاجم أسطوله الإسكندرية، وقد انتهزوا غياب تورانشاه في اليمن لتنفيذ مؤامرتهم. ولكن أمسك صلاح الدِّين بخيوط المؤامرة ووقف على تفاصيلها، واكتشف العلاقة بين الصليبيين وزعماء الفتنة في مصر، فألقى القبض عليهم وأمر بشنقهم جميعًا[30].

شاءت الأقدار أن يتوفى نور الدِّين في الشام بعلة الخوانيق في11 شوال 569هـ/15 مايو 1174م، عن تسع وخمسين سنة، وكان من الملوك الذين اتصفوا بالعدل وحسن الخلق،

([29]) ابن ا لأثير: الكامل، ج10، ص49-50، 52.
([30]) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص185-186؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص243-250.

وأسس دولة كبيرة في الشام والعراق، وكان موته خسارة كبيرة للعالم الإسلامي. وتهيأت الفرصة لصلاح الدِّين في الانفراد بحكم مصر وتحقيق طموحاته، بعد تخوفه من السلطان العادل نور الدِّين، حتى أنه حكى للقاضي بهاء الدِّين ابن شداد بأنه « بلغنا عن نور الدِّين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية... وكنت وحدي أخالفهم وأقول: لا يجوز أن يُقال شيء من ذلك، ولم يزل النزاعُ بيننا حتى وصل الخبرُ بوفاته»[31]. وهو ما يوضح مدى العلاقة الطيبة التي كانت تجمع بين نور الدِّين وصلاح الدِّين، وأنه رغم تحذير البعض له إلا أنه كان يعلم منزلته لدى سيده نور الدِّين، كما أن هذا دليل على شهامته وأنه لا يريد شق عصا الطاعة لسيده، الذي إذا أراد الخروج إليه وعزله من مصر لفعل.

على أيه حال، واجه صلاح الدِّين في مصر بعض الأخطار الداخلية والخارجية وهي:

1-مهاجمة أسطول وليم الثاني ملك صقلية الإسكندرية 569هـ/يوليو 1174م:

تعرضت مدينة الإسكندرية في ذي الحجة سنة 569هـ/يوليو 1174م لهجوم من أسطول ملك صقلية وليم الثاني النورماني، الذي أرسله بعد مراسلة أنصار الدولة الفاطمية بغرض القضاء على صلاح الدِّين، لكن وليم الثاني لم يكن يعلم بما لحق بالمتآمرين، وحاصر الأسطول المدينة ثلاثة أيام بالمجانيق والدبابات، وفي اليوم الثالث خرج أهل الاسكندرية على النورمان

(31) النوادر السلطانية، ص112.

وهزموهم، وأرسل صلاح الدِّين قواته من القاهرة عند سماعه الخبر وأنه قادم في الطريق، وسمع النورمان بقرب مجي صلاح الدِّين فهربوا خائفين.

2-حركة كنز الدولة في بلاد النوبة 570هـ/أغسطس1174م

كما واجه صلاح الدِّين خطرًا قادمًا إليه من الجنوب، عن طريق الحركة التي تزعهما كَنز الدولة في أسوان، حيث اجتمع العبيد والسودان وبقايا الفاطميين وأوهمهم بإعادة الدولة الفاطمية، وتوجه إلى قوص شمالًا ، فأرسل صلاح الدِّين أخاه الملك العادل سيف الدِّين أبا بكر بن أيوب على رأس جيش ضخم والتقى بكنز الدولة في قرية طَود بالقرب من الأقصر وحدثت معركة ضارية انتهت بمصرع كنز الدولة، وأبيد أصحابه قتلا وأسرا في المحرم سنة 570هـ/أغسطس1174م، وقضى على آخر محاولات قامت بها البقايا الفاطمية[32].

([32]) النوادر السلطانية، ص113؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص221؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص16-17.

الفصل الثاني

الأيوبيون والجهاد

أولًا: صلاح الدِّين ورأب الجبهة الإسلامية:

أيقن صلاح الدِّين أهمية السعي من أجل توحيد الشام وشمال العراق وضمها إلى مصر في مرحلة تمهيدية لخوض مرحلة أخرى أعظم ضراوة لتحرير الشرق من براثن الصليبيين، وسرعان ما اتخذ سبيله نحو تحقيق مشروعه الكبير" التوحيد" بعد وفاة نور الدِّين محمود 569هـ/1174م بقليل.

وكان الصليبيون بزعامة ريموند الثالث صاحب طرابلس والوصي على مملكة بيت المقدس يدركون من جانبهم الخطر الذي سوف يتهددهم إذا ما نجح صلاح الدِّين في رأب الجبهة الإسلامية ممتدة من النيل إلى الفرات.

والحق أن الساحة الشامية والجزرية قد خلت آنذاك من رجال همام ممن ورثوا الحكم الزنكي بعد نور الدِّين محمود، فالصالح إسماعيل الوريث الشرعي لم يكن يتجاوز الحادية عشرة من عمره، وأمراء نور الدِّين في دمشق وحلب ليسوا على وفاق، وأوجد التنافس بينهم عداوة وبغضاء، فسعوا للاستحواذ على الصبي الوريث رغبة في الفوز بالملك دونما مراعاة لمبدأ الوحدة والتضامن بعد غياب المجاهد نور الدِّين، ودونما نظر إلى خطورة التجمعات الصليبية التي ما لبثت أن توحدت مرة أخرى بتأثير قيادة ريموند الثالث.

أما الورثة الزنكيون وعلى رأسهم سيف الدِّين غازي الثاني صاحب الموصل فكانوا على حذر من أهداف الناصر صلاح الدِّين التوحيدية والتي باتت في نظرهم معوقًا يحول دون وصولهم إلى الفوز بميراث آل زنكي العظام، الأمر الذي جعل بعضهم يفضل محالفة الصليبيين للحيلولة دون نجاح صلاح الدِّين فيما كان يسعى إليه.

ولم يعد في الساحة الإسلامية من يسعى لدرء المخاطر بالمسلمين سوى الناصر صلاح الدِّين والرأي العام في الشام، فكلاهما كانا يفطنان إلى وجود العدو الصليبي القابع على أراضي شامية غالية، ووجود أمراء نوريين وورثة زنكيين غير جديرين بخلافة البيت الزنكي، وبدافع الجغرافيا وباعث الجهاد كان السعي منهما نحو جمع الكلمة وتوحيد الصف.

ويأتي دور الرأي العام ممثلًا في صوت القاضي كمال الدِّين الشهروزي ينادي بالالتفاف حول صلاح الدِّين معلنًا لشمس الدِّين ابن المقدم صاحب دمشق وسائر الأمراء النوريين بأنه الأقوى بملكيته لمصر ومواردها وثرواتها وقوتها، وأن الانقياد له تفرضه الضرورة، لكن الأمراء الطامعين خشوا بأس صلاح الدِّين "وخافوا أن يدخل ...ويخرجهم".

أما صلاح الدِّين نفسه فقد أصبح لا سلطان لأحد عليه في مصر، الأمر الذي دفع به إلى مراسلة أمراء الشام يؤكد حقه في الوصاية على الصالح إسماعيل بن نور الدِّين وأملاكه

ممهدًا بذلك خطوة أخرى لاحقه تنتهي بطبيعة الحال بتكوين ملك عريض يمتد من الفرات إلى النيل.

كان الراغبون في الجهاد يكونون جبهة قوية تحركها دوافع دينية، بفعل مواقف القضاة والعلماء الذين رأوا في صلاح الدِّين أملًا يُحتذى، وبات في الشرق الإسلامي جبهتان متعاديتان، الأمراء الطامعون في ورثة البيت الزنكي بتأييد صليبي، والناصر صلاح الدِّين بتأييد العلماء والقضاة. ونحاول فيما يلي رصد ما كان يجري بينهم من صدام على مر فترة زمنية لاحقة على وفاة نور الدِّين.

أدرك صلاح الدِّين أن وحدة المسلمين تحت قيادته دون أن يشاركه أحد تمثل عاملًا مؤثرًا كي يحقق الانتصار على الصليبيين في وقت كان يحتمل فيه تعاون الأمراء النوريين مع هؤلاء على حربه، كما أن خبرته التي اكتسبها من مصر على نحو ما مر بنا قد جعلته يتطلع إلى ضم الشام إلى مصر، وفي ذلك كله بواعث من شأنها أن تمضي به إلى دخول الشام دون أن يأبه بأي خطر قد يلوح في الأفق.

سرعان ما ثبت لصلاح الدِّين صدق ما كان يدركه، فبدلا من أن يعمل ابن المقدم صاحب دمشق على درء الخطر الصليبي الذي شرع في مهاجمة بانياس سنة 570هـ/1174م،

إذ به يراسل الصليبيين ويحالفهم ضده، الأمر الذي دفع صلاح الدِّين أن يعلن تقبيحه لأمراء الشام.

غير أن الأمراء النوريين مالوا إلى الفرقة بتأثير ما دار بينهما من تنافس، وأدت الخلافات إلى استنجاد ابن المقدم– الذي ساءه استبداد الأمير سعد الدِّين كمشتكين بالصالح إسماعيل والانتقال به إلى حلب– بصلاح الدِّين، فجاءت هذه الدعوة بداية مرحلة جديدة في تاريخ الحركة الصليبية وفي تاريخ صلاح الدِّين.

والحق أنه كان للعلماء دور في درء مخاطر الأمراء النوريين، ولم يكن ذلك الدور وليد هذه الآونة التي تأهب فيها صلاح الدِّين إلى دخول الشام، كما أنه ليس ممثلًا لعهد جديد بل هو دور لازم من قبل الأسرة الأيوبية حين كان صلاح الدِّين شابًا يشهد أحداث الحملة الصليبية الثانية وما أصابها من فشل، ذلك أن أسد الدِّين شيركوه ونجم الدِّين أيوب شاركا مشاركة فعلية فقهاء المسلمين وعلى رأسهم الفقيه برهان الدِّين البلخي في عملية فتح دمشق والجهاد ضد الصليبيين المتحالفين مع أتابكها مجير الدِّين آبق الذي داهمه نور الدِّين محمود سنة 549هـ/1154م.

ويبدو أن صلاح الدِّين كان ينتظر من مؤيديه العلماء الشيء الكثير بحيث يأتي ذلك الدور ليسر عليه أمر ضم الشام دون الدخول في حروب شرسة مع الأمراء النوريين والزنكيين،

بدليل أنه زحف إلى دمشق بعد استنجاد ابن المقدم به على رأس سبعمائة فارس فقط، ووصل إليها في ربيع الآخر سنة 570هـ، وكأنه في نزهة، وكان اهتمامه بتأمين مصر قبل خروجه يلى رعاية كاملة، بدرجة ربما كانت أشد تركيزًا مما أولاه من أجل الفوز بدمشق آنذاك، ولم يكن ذلك يحدث لولا حاجة أميرها واستنجاده به واعتماده على إلحاح سكان دمشق المؤيد برأي العلماء في دعوة مخلصة لتجنب طموح كمشتكين أمير حلب وخطر الصليبيين.

ولم يغفل صلاح الدِّين حاجته إلى جيش قوي، وأنه قد ترغمه أطماع النوريين إلى طلب النجدة من مصر، لذا استخدم وسائل الترغيب في خوض أول معركة على طريق التوحيد، وهكذا صرخ عند دخوله دمشق بأنه يؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم، كما حرص على إظهار ولائه للصالح إسماعيل بن نور الدِّين محمود وإعلان وفائه للبيت الزنكي حتى لا يترك مجالا لاتهامه بالخيانة من جانب الطامعين والمناوئين، وأدى ذلك كله إلى فتحه دمشق دون عناء، وسرعان ما باشر ميوله الإنسانية، فانفق أموالًا طائلة على أهالي دمشق الذين ازداوا تعلقًا به، وبعد أن استمال الدماشقه اتجه صوب حلب، وفي الطريق إليها استولى على حمص ثم حماه سنة 570هـ/1174م.

وتتجلى لنا الخيانة بكل صورها فيما أقدم عليه الأمراء النوريون بزعامة كمشتكين من الاستعانة بالحشيشية والصليبيين لإرغام صلاح الدِّين على فك الحصار الذي فرضه على حلب، وكان أن تجاوز الحلبيون في خيانتهم حدا جعلهم يستعينون بريموند الثالث صاحب

طرابلس والوصي على عرش مملكة بيت المقدس، الأمر الذي كان ينتظره الأخير للحيلولة دون قيام وحدة إسلامية بين القاهرة ودمشق وحلب.

على أن صلاح الدِّين أفاد كثيرًا من دخوله دمشق لما جناه من مكاسب كثيرة لعل من أهمها أنه قد صار الرمز الأوحد في نظر أهالي الشام الذي تجرأ بعد وفاة نور الدِّين على مناجزة الصليبيين، وأخذ يسعى بثقة رغم قلة جنده لضرب المحالفين الطامعين، ولم يعد غريبًا إزاء ذلك كله أن ينهض صلاح الدِّين في عام 570هـ للإغارة على أنطاكيا، وفي العام نفسه عاد إلى حمص التي فاجأها الصليبيون ليصرفوه عن حلب، وتابع ذلك بالإستيلاء على بعلبك، وأوقع بالزنكيين هزيمة منكرة عند قرون حماه، وأنهى هذه المرحلة بأن قطع خطبة الصالح إسماعيل بن نور الدِّين وأزال اسمه عن السكة في بلاده متخذًا لنفسه لقب"ملك مصر والشام".

ومما ساعد صلاح الدِّين على جني هذه الثمار أن الأمير سعد الدِّين كمشتكين سلك في حلب سياسة غاشمة تجاه أنصار كل من صلاح الدِّين والصالح إسماعيل بن نور الدِّين في آن واحد مما أفقده القدرة على ضبط أمور حلب ودفاعه عنها، ذلك أن استبد بالأمور وعامل ابن الداية وأولاده بما ينطوي على القسوة والغلظة وهم أشد مؤيدي صلاح الدِّين، كما أنه اعتقل الأمير عز الدِّين جورديك صاحب حماه المشمول بحماية صلاح الدِّين والمؤيد من قبل الصالح إسماعيل، في وقت كان الحلبيون يميلون إلى صلاح الدِّين باستثناء الشيعة، ويرغبون

في تسليمه حلب، ولم ير صلاح الدِّين بتأثير ذلك كله من مكاتبة الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله يطلب منه تقليدًا شرعيًا بمصر واليمن والمغرب وبلاد الشام وجميع ما اشتملت عليه دولة نور الدِّين محمود.

وأخذ صلاح الدِّين يوالي انتصاراته على أمرءا البيت الزنكي، إذ باغت تحالفًا أعده سيف الدِّين غازي– صاحب الموصل– والصالح إسماعيل وريموند الثالث صاحب طرابلس وأنزل بهم الهزيم سنة 571هـ/1176م عند تل السلطان جنوب حلب مدفوعًا–بطبيعة الحال– بذلك التقليد الذي منحه إياه الخليفة العباسي بحكم مصر والشام، فضلًا عن إمدادات عسكرية قدمت إليه من مصر.

وكان التقليد العباسي الذي قد آثار ثائرة سيف الدِّين غازي– صاحب الموصل– لكن خابت مراميه، فسرعان ما تمهد السبيل أمام صلاح الدِّين لضم حلب ونواحيها، حيث شرع في قطع الطريق بين خلب والموصل للحيلولة دون عودة الطامعين إلى التحالف مرة أخرى وعزل الصالح إسماعيل بن نور الدِّين عن صاحب الموصل، ومن أجل ذلك دخل في صلح مع الحلبيين، وانصرف عن مدينتهم سنة 571هـ/1176م، مراقبًا الموقف عن كثب إيذانًا بخطوة أخرى لاحقة.

سرعان ما تطورت الأحداث لحساب صلاح الدِّين بعد وفاة كل من سيف الدِّين غازي الثاني صاحب الموصل سنة 576هـ/1180م، والصالح إسماعيل 577هـ/1181م، وفي وقت حصل فيه صلاح الدِّين على تفويض من الخليفة العباسي بحكم الرها والرقة وحران ونصبين والخابور، وأفقد بذلك جيش الموصل من قوة عسكرية من شأنها ترجيح موقفه على خصومه الشاميين والجزريين.

مضى صلاح الدِّين صوب بلاد الجزيرة، حيث فرض حصاره على الموصل سنة 578هـ، ولما أحس بمناعتها وصمودها اضطر إلى العودة شاغلًا نفسه بدرء المخاطر الصليبية التي استهدفت دمشق وبصرى وحوران، فعاد إلى شمال الشام، فارضًا حصاره على حلب 579هـ/1183م، وصادف أن واكب هذه الخطوة يأس من قبل أتابكها عماد الدِّين زنكي الثاني الذي لم يتردد في مراسلة صلاح الدِّين سرًا عارضًا عليه تنازله عن حلب مقابل منحه سنجار، فوافقه صلاح الدِّين وزاده.

ولا يحفى علينا أثر هذا النجاح الذي حققه صلاح الدِّين في تمهيد السبل نحو إتمام مشروعه الوحدوي الكبير، وما كان يعنيه في نفوس الصليبيين. سرعان ما أخذ صلاح الدِّين ثمار انتصاره في حلب فمضى ناحية الشمال قاصدًا الموصل سنة 582هـ/1186م، وانتهى الأمر بصلح أبرمه معه عز الدِّين سمعود صاحب الموصل ودخل بموجبه في طاعته، وصار تابعًا له يخطب باسمه في الخطبة وينقش اسمه على السكة.

ولما فرغ صلاح الدِّين من أمر البلاد الشامية والجزرية أخذ يعمل على حماية مصر لعلمه بأهميتها القصوى التي جعلتها محل استهداف الصليبيين، فأخذ إجراءاته للدفاع عنها، وكان أيقن أهمية تحصين مصر بتأثير ما اكتسبه من ثقل عسكري، وما لمسه من تحصينات شامية شاهدها بنفسه إبان فترة الوحدة التي خاضها وحرص على تأمين نتائجها بحماية جبهته الموحدة، وبتأثير ذلك كله رأى أن الوحدة الإسلامية لا يمكن استمراريتها إلا بتدعيم خطوط مصر الدفاعية دون تأجيل، وهكذا عاد صلاح الدِّين إلى مصر قادمًا من الشام في سنتي (572–577هـ/1176–1181م)، يباشر سلسلة من التحصينات القوية لحماية مصر وعاصمتها وثغورها.

وهكذا نجح صلاح الدِّين في توحيد البلاد الشامية والجزرية والمصرية تحت لوائه مكونًا بذلك وحدة سياسية وعسكرية بين الفرات والنيل خاضعة لسلطانه الأعلى مما كان له أكبر الأثر في خوض مشروعه الكبير في ميدان الجهاد.

ثانيًا: صلاح الدِّين والصليبيون:

من الثابت أن صلاح الدِّين كان وليد عصر مضطرم بقلوب عامرة بالإيمان وراغبة في الدفاع عن العقيدة ضد عدو غاشم باغت الشرق الإسلامي، وظل جاثمًا عليه فترة زمنية طويلة الأجل، وعلى نحو ما مر بنا فقد أفرز ذلك العصر رموزًا مخلصة قدر لصلاح الدِّين أن يكون

وريثًا لها حاملًا عبء الدفاع عن العقيدة والأرض، وكان أن بدأ مراحل جهاده دفاعًا عن مصر بذلك الدور الكبير الذي أسهم به في إرغام ملك بيت المقدس على ترك مصر عدة مرات، وذلك ضمن حملات عسكرية شارك فيها قيادة عمه أسد الدِّين شيركوه بأمر من نور الدِّين محمود في أعوام 559–564هـ/1164–1169م. كما قاوم ريموند الثالث و صاحب الموصل حين سعى للحيلولة دون استيلائه على حلب (570هـ/1175م)، وخرج صلاح الدِّين من هذه المواجهات الميدانية بخبرة كان لها بطبيعة الحال–أعظم الأثر فيما خاضه من معارك ضارية وقت أن شن حربه الشاملة على الصليبيين.

وكان أن تعرض الصليبيون لأزمة شديدة بسبب سوء أحوال بلدوين الرابع ملك بيت المقدس، ومرضه فضلًا عن سوء تدبير وصيه الضعيف جاي لوزجنان، وتنازع الأمراء الصليبيين حول وراثة الحكم، وتبدل أحوال أنطاكيا على حين حقق صلاح الدِّين نجاحًا كبيرًا بضمه حلب في سنة 579هـ/1183م، ثم الموصل 581هـ/1186م، الأمر الذي وفر الأسباب لتمهيد السبيل أمام صلاح الدِّين نحو التحرير.

وأخذ صلاح الدِّين بتأثير ما كان يملكه من خبرة عسكرية بفعل ما توفر له من أسباب تعكس ضعفًا هائلًا في المعسكر الصليبي يتلمس الفرص المناسب لبدء مرحلته الجهادية الشاملة ضد الممالك اللاتينية في الشرق الأدنى.

وكان صلاح الدِّين آنذاك مرتبطًا بهدنة مع الصليبيين عقدها سنة 580هـ/1185م، ولمدة أربع سنوات لأسباب تعود في معظمها إلى رغبته في راحة سلبية لتسوية خلافات أسرية ووقف حركة التمرد التي كادت أن تندلع في الموصل، وأما ريموند الثالث صاحب طرابلس فكان في مسيس الحاجة إلى هدنة تعالج مشاكل عديدة في المعسكر الصليبي، ولما سحبت منه الوصاية بعد وفاة بلدوين ثار غضبه والتجأ إلى صلاح الدِّين طالبًا مساعدته، فسر صلاح الدِّين وأمده بالعسكر واعدًا إياه بالوقوف بجانبه سنة 582هـ/1186م.

وكان رينولد شاتيون صاحب الكرك أن نقض الهدنة وذلك باعتراضه سنة 582هـ لقافلة تجارية إسلامية متجهة إلى دمشق فسرق بضائعها وأسر رجالها، ورفض الإذعان لمطالب صلاح الدِّين ووساطة جاي لوزجنان ملك بيت المقدس بإطلاق الأسرى، ولم ير صلاح الدِّين إزاء ذلك كله بدا من إعادة العدة لخوض حربه الضروس، فانتقل إلى دمشق حيث أقام، وأخذ ينظم تحركات قواته من مصر وحلب والجزيرة وديار بكر وسرعان ما قصد الكرك ونازلها 583هـ/1187م، ثم الشوبك ، ومنها اتجه إلى بانياس لمراقبة الموقف.

معركة حطين:

يتضح لنا مما تقدم أن أسبابًا توفرت لصلاح الدِّين دفعته إلى شن حرب على الصليبيين وبالذات تلك التي أوجدت انقسامًا داخليًا بين الصليبيين بصورة جعلت المؤرخين المسلمين المعاصرين يعتبرونها من الأسباب الموجبة لفتح بلادهم.

وأوقع صلاح الدِّين بالجيش الصليبي هزيمة ساحقة قرب صفورية سنة 583هـ/1187م، مما كان له أسوأ الأثر على سياسة ريموند الثالث صاحب طرابلس الذي ما لبث أن نقض تحالفه مع صلاح الدِّين لإدراكه بأن الدائرة سوف تدور عليه لا محالة.

لم ير صلاح الدِّين بدا إزاء ما أقدم عليه ريموند الثالث من دعوة جنده إلى مواصلة الهجوم على الأماكن الصليبية، فباغت طبرية 583هـ/1187م في محاولة يرمي من ورائه إلى إخلاء صفورية من المعسكر الصليبي ضمن خطة استهدفت إرغامهم على ترك مواقعهم ليواجهم بعد أن يعتريهم التعب وينزل بهم الهزيمة، وهكذا تحقق له ما أراد، إذ تحرك الصليبيون إلى قرون حطين وهم في تعب وإعياء بينما كان المسلمون في راحة واستقرار وعلى أهبة الاستعداد، ولم تنقطع غارات المسلمين عليهم أثناء زحفهم من صفورية إلى حطين، وأوقعوا الكثير منهم قتلى، وأربكوهم بعد أن أصابوهم دون أن ينالوا منهم لعجزهم إزاء ما استخدمه المسلمون من أساليب الكر والفر وسرعة الالتفاف والمباغتة.

وتظهر خبرة صلاح الدِّين العسكرية في إدارة المعركة، فبعد أن زين للصليبيين ترك مواقعهم من صفورية دمر صهاريج الماء في منطقة القتال، وأغلق الطرق المؤدية إلى بحيرة طبرية لمنع الصليبيين من الوصول إليها، وسرعان ما أدرك الصليبيون أنهم محاصرون ففروا إلى قرون حطين، وفي ربيع الآخر 583هـ/يوليو 1187م، وقعت بين المسلمين والصليبيين معركة حطين الشهيرة حيث دارت مقتلة عظيمة كان النصر فيها لصلاح الدِّين.

وكان لاح النصر في حطين للمسلمين بتأثير ذلك الاخفاق الذي مني به ريموند الثاثل لعجزه عن الوصول إلى ينابيع الماء على الطريق المؤدي إلى حطين معرضًا قواته لحصار مفاجيء من قبل المسلمين مما أوقع عددًا كبيرًا منهم بين القتل والأسر، ومما زاد الأمر سوءًا لدى القيادة الصليبية أن المشاة لم يثبتوا كفاءة قتالية يجاروا بها أقرانهم الفرسان من الداوية والإسبتارية ممن تمكنوا من إحراز نجاح نسبي في المواجهة بقتل عدد من المسلمين وأسر آخرين، وخابت أمالهم بعد أن ارتبك المشاة وانسحبوا إلى إحدى قرون حطين، الأمر الذي يعد سببًا بارزًا في تراجع القوة الصليبية وتفكك الجيش.

هكذا نجح صلاح الدِّين في إثارة الصليبيين، في وقت رتب فيه المقاتلة على التلال الواقعة غرب طبرية التي لم يستطع الأعداء التقدم إليها، وانتهى الأمر بان أرغموا على التوقف في منتصف الطريق عند حطين.

ومهما يكن من أمر فقد اشتد بالصليبيين العطش عند حطين، فأخذتهم سهام المسلمين الذين قاموا بهجوم شامل أنهوا بها المعركة وأسروا الملك جاي لوزجنان ومن معه من الأمراء والزعماء والقادة، حيث عاملهم صلاح الدِّين بما ينطوي على الود والتسامح باستثناء رينولد شاتيون الذي أمر بقتله.

ولا يخفي علينا الأثر الطيب الذي أحدثه انتصار المسلمين في حطين، فقد ارتقى بشخصية صلاح الدِّين بحيث صار ينظر إليه باعتباره رمزًا مخلصًا يلتف حوله المسلمون الذين ما لبثوا أن استردوا كرامتهم، وتطلعوا إلى الخلاص من المستعمر الصليبي قاطبة، وأخذ الصليبيون يشعرون بكارثة عسكرية من شأنها أن تحول دون حفاظهم على ما بقي لهم من ممتلكات، والأمر الجدير بالإعجاب أن الغرب الأوربي لم ينكر السياسة الهادئة التي سلكها صلاح الدِّين تجاه الأمراء الصليبيين ومدح ما انطوت عليه من خلق قويم.

أخذ صلاح الدِّين يجني ثمار انتصاره في حطين، فبدأ في الإعداد لتصفية الوجود الصليبي كله، ففاجأ الموانئ الساحلية بهدف منع اتصالها بالغرب الأوربي، وهكذا استولى في السنة نفسها ودون عناء على عكا والناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية وبيروت وجبيل وعسقلان سالكًا سياسة سمحت لأهالي تلك البلاد بالرحيل إلى صور الأمر الذي جعل هذه المدينة مركزًا اتخذه الصليبيون أساسًا لإحياء مملكة بيت المقدس في وقت لاحق.

سرعان ما توجه صلاح الدِّين إلى الداخل مستهدفًا استرداد بيت المقدس، فنازل الصليبين بها في رجب 583هـ/1187م، وأرغمهم على التسليم بعد أن أبدوا مقاوم، وسمح لهم بالخروج من المدينة مقابل فداء تراوح بين عشرة دنانير للرجل، وخمسة دنانير للمرأة، ودينارين للطفل، تؤدى خلال أربعين يومًا على أن يصير الرافضون للأداء مماليك، وكان أن بالغ صلاح الدِّين في تسامحه حين علم بآلاف الفقراء الذين لا يملكون القدرة على الأداء، ولم يقرر عليهم سوى مبلغ قدره ثلاثون ألف دينار عن ثمانية عشر ألفًا منهم[33]، وأبدى استعداده لإطلاق صراح كل عجوز وامرأة، فضلا عما وهبه من الأسرى لبطريك المدينة، وقائد حاميتها بليان الابليني.

وما تجدر ملاحظته أن المؤرخين المسيحيين المحدثين أبانوا في كتاباتهم ترحيب الأرثوذكسية اليونانية وسائر المذاهب النصرانية الشرقية بعودة الحكم الإسلامي لمدينة القدس لما اشتهر به المسلمون من التسامح الدِّيني، وكان أن أبدى الإمبراطور اسحاق كومنين فرحته وأرسل إلى صلاح الدِّين يهنئه بالاستيلاء على بيت المقدس، وطلب تجديد التحالف معه ضد اللاتين، على حين نظر نصارى الغرب إلى هذا النجاح الذي حققه المسلمون بوصفه كارثه شديدة آملين في إعادة ما كان لهم من مجد في الشرق الإسلامي قبل حطين وضياع العودة،

(33) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص156.

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل إن البابوية أثارت ملوك أوربا مشجعة إياهم لإعداد حملة صليبية بهذا الخصوص.

وقد صادف دخول صلاح الدِّين بيت المقدس في ذكرى الإسراء والمعراج الجمعة 27 رجب 583هـ، فاحتفلوا بهذه المناسبة، وسمحوا لأهله باستطابة حياة مدنية هادئة عديدة لا يمكن التقليل من خطورتها ، وبالذات المدن الكبرى صور وأنطاكيا وطرابلس فضلًا عما في حوزتهم من قلاع وحصون داخلية لابد من استردادها، وإزاء ذلك كله قرر صلاح الدِّين البدء في خوض مرحلة جهادية أخرى لتنقية هذه النواحي من الوجود الصليبي.

فرض صلاح الدِّين حصاره على مدينة صور في رمضان 583هـ/1187م، لكن بسالة قائدها كونراد دي مونتفيرات ومناعة تحصيناتها قد خال دون ذلك، فحول صلاح الدِّين طريقه نحو الشمال حيث فاجأ الحصون التابعة لطرابلس بعد وفاة صاحبها ريموند الثالث، واستولى على جهاتها الشمالية حيث بانياس، ووالى زحفه نحو أنطاكيا، فسيطرعلى اللاذقية أهم مدنها، وسرعان ما وقع في قبضته سنة 584هـ قلعتان للداوية «دربساك وبغراس».

وقصارى القول فإن صلاح الدِّين استرد خلال عام أو يزيد بيت المقدس وكثيرًا من المدن والحصون، ولم يبق أمامه سوى مدن صور وطرابلس وأنطاكيا وقليل من الحصون الصليبية، الأمر الذي جعله في مسيس الحاجة إلى إعداد العدة لمرحلة لاحقة يستكمل بها

أعماله العسكرية لإتمام عملية التحرير، على حين دعا الصليبيون أوربا للتدخل إنقاذًا لهم، وسعيًا من أجل البقاء في الشرق.

الحملة الصليبية الثالثة:

لم يعد في المعسكر الصليبي رجل مهموم بتلك الكوارث التي مر بها الصليبيون أقوى من كونراد دي مونتيفرات قائدهم في صور، ذلك أنه عاجل البابوية بمبعوث أوفده طالبًا تدخلها لدى ملوك وربا لإرسال حملة صليبية في وقت غاب فيه عن الظهور في هذا السبيل بوهيموند الثالث صاحب أنطاكيا وخلت فيه الساحة من ريموند الثالث صاحب طرابلس، وكان أن تم لكونراد ما أراد، إذ استجاب لدعوة البابا من أجل العودة إلى بيت المقدس ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا، وفردريك بربروسا ملك ألمانيا.

وكان أن اختار فردريك بربروسا طريق البر عبر أراضي الدولة البيزنطية لارتباطه بمعاهدة معها، لكن صلاح الدِّين كان يعلم ما آلت إليه العلاقات بين إمبراطور بيزنطة إسحاق انجيلوس وفردريك بربروسا من تبدل فضلًا عن علمه بشكوكه في نوايا وغدره وعدم ثقته به، لينتهي الأمر بدخوله في التحالف مع بيزنطة على أساس أن يقوم إسحاق انجليوس بإعاقة تقدم الإمبراطور فردريك بربروسا في آسيا الصغرى.

على أن مخاوف الإمبراطور البيزنطي من نوايا فردريك بربروسا سرعان ما ازدادت– وبالذات– بعد أخذ الأخير يستعد لمهاجم القسطنطينية الأمر الذي أدى إلى تعجيل بيزنطة بعبور القوات الألمانية إلى آسيا الصغرى، لكن شيئًا من ذلك كله لم يؤد إلى نتيجة ما بسب

غرق الإمبراطور فردريك بأحد أنهار آسيا الصغرى وفشل حملته، وكان حينئذ ينوي المسير صوب أنطاكيا.

وكان أن تجمعت بقايا الصليبيين في صور، وانطلقت قاصدة عكا، وصادف ذلك وصول فيليب أغسطس بحملته البحرية قادمة من صقلية في ربيع الأول 587هـ/1190م، ليشارك في حصار عكا التي اشتد ضعفها بوصول حملة ريتشارد قلب الأسد إليها في جُمادى الآخر 587هـ/1190م، ولتعاظم هجوم الصليبيين عليها سقطت المدينة، ونكل بالأسرى المسلمين، وأمر ريتشارد بذبحهم، ولم تفلح جهود صلاح الدِّين في إنقاذها، وأرغم آسفًا على قبول شروط التسليم التي عقدها الصليبيون مع حامية عكا.

معركة أرسوف:

وكان أن نشب خلاف بين فيليب أغسطس وريتشارد أدى إلى اعتذار الأول وعودته إلى الغرب، وبات ريتشارد وحده في القيادة مفضلًا الزحف بموازاة الساحل، فاستولى على حيفا التي أجلاها المسلمون، وقيسارية، وظل على تلك الحال حتى أرسوف، حيث لجأ إلى التفاوض عله يحرز انتصارًا سياسيًا يدخل به بيت المقدس دون قتال، لكنه خاب ظنه، ووقعت معركة أرسوف في شعبان 587هـ/1191م، بعد أن تشجع كل طرف بما وصله من إمداد، وحالف النصر قوات ريتشارد مما دفع به إلى السير جنوبًا معاودًا الاتصال بالعادل أخي صلاح الدِّين راغبًا في عقد هدنة للمطالبة ببيت المقدس من جديد، ولم يحدث شيء من ذلك، فقد رفض صلاح الدِّين هذه المطالب متمسكًا ببيت المقدس، ولعدم ثقته في كونراد صاحب صور رفض اقتراحًا منه كان قد حمله إليه صاحب صيدا آنذاك، يعلن استعداده لقصد عكا واستخلاصها للمسلمين مقابل تنازله عن صيدا وبيروت، على أن انتصار ريتشارد في أرسوف لم يكن حاسمًا، كما أن قوة صلاح الدِّين لا تزال مخيفة للصليبيين، وبالذات في الداخل حيث أجرى استحكاماته في بيت المقدس بصورة أفقدت ريتشارد صوابه، وكان أن انشغل ريتشارد من قبل بسبب عداء كونراد صاحب صور مما صرفه عن المسائل العسكرية، والأكثر من ذلك أن الملك الإنجليزي أصابه اليأس تمامًا إزاء احساسه بعدم قدرته على دخول بيت المقدس وعجزه عن البقاء ورغبته في الرحيل لدرء ثورة كان أخوه حنا قام ضده بها، فاضطر إلى مفاوضة صلاح

الدِّين الذي كان حينئذ بحاجة إلى تهدئة الموقف لمعالجة ما كان يدور من نزاع بين عناصر جيشه، وهكذا مال الطرفان في شعبان 588هـ/سبتمبر 1192م إلى عقد صلح الرملة، اعتبارًا من 21 شعبان 588هـ/سبتمبر 1192م، ونصت المعاهدة على[34]:-

1- أن تكون مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

2-تم الاتفاق على أن تكون المنطقة الساحلية الممتدة من مدينة صور إلى يافا بما فيها عكا وحيفا وقيسارية للصليبيين.

3- كما تم الاتفاق على أن تترك عسقلان وما يليها جنوبا خرابا ولا تكون لأحد من الطرفين خلال مدة الصلح ثم على من يحصل عليها بعد ذلك أن يقوم بإعادة تحصينها.

4- تظل بيت المقدس في أيدي المسلمين.

5- أن يسمح للحجاج المسيحيين بزيارة بيت المقدس.

6-أن تكون مدينة اللد والرملة مناصفة بين الطرفين.

7-يشمل الصلح إمارتي أنطاكية وطرابلس الصليبيتين، وبلاد الإسماعلية.

8- لكل من المسلمين والصليبيين اجتياز أراضي الآخر بأمان في كل وقت وحين.

([34]) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص 400-401؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص403-404.

مما سبق يتضح لنا أن الحملة الصليبية الثالثة لم تحقق الهدف الذي جاءت من أجله، وكان أبحر ريتشارد عائدًا إلى بلاده بعد شهرين من توقيعه على المعاهدة، وما لبث أن توفي صلاح الدِّين 589هـ/1193م، ليختفي عن الساحة أهم وأشهر قائد في عصر الحروب الصليبية.

ثالثًا: خلفاء صلاح الدِّين والجهاد:

جهود العادل في درء الخطر الصليبي:-

تعرضت الدولة لحالة من التوتر بعد وفاة صلاح الدِّين، ذلك أن أولاده من بعده دخلوا في نزاع مرير حول مناطق النفوذ والفوز بالسلطنة مما عاد بالسلب على سيرتهم الجهادية، وانحصر النزاع بين ثلاثة من أبنائه وهم بالتحديد الأفضل علي في دمشق، والعزيز عثمان في مصر، والظاهر غازي في حلب، ومن حسن الحظ أن الصليبيين آنذاك كان يعتريهم التفرقة والضعف العام بعد رحيل ريتشارد قلب الأسد، وبعد أن أصبح الخلاف بين قبرص وعكا أمرًا صعبًا، وأوجد لك كله لدى كل من الأيوبيين والصليبيين رغبة في التهدئة، الأمر الذي يمكن أن نفسر في ضوئه لجوء العزيز عثمان إلى تجديد الهدنة مع الصليبيين في عكا باعتبار أن عكا تمثل بالنسبة للغرب الأوربي حينئذ بديلًا يحتل مكانة بيت المقدس الذي حرره المسلمون، ومقرًا لمملكة بيت المقدس الجديدة.

على أن الغرب الأوربي أيقن أهمية الوحدة بين الصليبيين وضرورة الاخذ بها في وقت كان بنو أيوب يتنازعون، وإلى أن حان الوقت لتحقيق هذه الوحدة من جانب الغرب، كان أبناء صلاح الدِّين المتنازعين يأملون من جانبهم في أن يجنح العادل لرأب الصدع بينهم حفاظًا على وحدة البيت الأيوبي ، ولئن أقبل العادل على ذلك ليحقق ما يمهد به لتولي زعامة هذا البيت

خلفًا لأخيه صلاح الدِّين إلا أنه قد سلك سياسة في هذا السبيل عادت بالنفع على ميدان الجهاد ضد الصليبيين، من ذلك أن تدخل العادل بين الأخوة الفرقاء من أبناء صلاح الدِّين كان من شأنه أن أوجد في القليل فرصًا لتهدئة صرفته وبعض أبناء صلاح الدِّين لمواجهة حملات صليبية قدمت من الغرب.

ونذكر في هذا السياق أن بعض الصليبيين الألمان وفدوا على بلاد الشام سنة 593هـ/1197م، فلقيهم العادل أخو صلاح الدِّين وأوقع بهم قرب غزة، ولما توجههوا صوب بيت المقدس أرسل العادل في نجدة ابن أخيه السلطان العزيز عثمان، ولبى هذا الأخير نداء عمه، في وقت أبدى فيه الامراء الأيوبيون رغبتهم في المشاركة للإيقاع بالألمان، وفاز الجميع بالمراد وأوقعوا بالعدو في الحال 594هـ/1198م، ولا يخفى علينا أثر النزاع بين القوى الصليبية الذي أدى بطبيعة الحال إلى فشل هذه الوفود الألمانية في تحقيق مآربها بدليل أنهم لم يتلقوا دعمًا ملموسًا من ملك الصليبيين في عكا.

وكان أن استولى العادل قبل صدامه بالألمان بقليل على يافا، وأحرج الصليبيين في عكا الذين تأثروا كثيرًا بوفاة ملكهم، ووضعوا آمالًا عريضة في خليفته عموري الثاني لوزجنان الذي بات في نظرهم حاميهم الأول، لكن هذا الأخير آثر التهدئة أمام صمود العادل أخي صلاح الدِّين وعم أبنائه، وبتأثير ذلك كله مال الطرفان إلى الصلح في شعبان 594هـ/1198م، ووجد العادل في هذا الصلح فرصة لإعادة توحيد الجبهة الإسلامية التي سرعان ما انفرط عقدها بعد

وفاة العزيز عثمان 595هـ/1198م،فخاض مرحلة استغرقت شهورًا حقق في نهايتها مراده بضم مصر وبيت المقدس ودمشق، وصار سلطانًا على البلاد وزعيمًا على كافة نواحيها.

بعد انحراف الحملة الصليبية الرابعة عن مسارها، عقد ملك مملكة بيت المقدس في عكا الصلح مع العادل ، الذي كان من من جانبه في مسيس الحاجة إلى مثل هذا الصلح إلى حد ألجأه أن يقبل تنازلات لصالح الصليبيين لخشيته من أن تتعرض مصر لهجوم موجه من القسطنطينية، وما لبث الجانبان أن عقدا صلحًا في 601هـ/1204م، وبمقتضى ذلك الصلح تنازل العادل بسبب سياسته التسامحية عن المناصفات في صيدا والرملة واللد، وأعطاهم الناصرة وغيرها، كما كان عليه أن يتنازل عن يافا فضلًا عن ما قدمه من تسهيلات للحجاج النصارى مقابل استمرارية المعاهدة لمدة ست سنوات[35].

على أن العادل على الرغم من تسامحه اضطر وبتشجيع من آلاف المسلمين في دمشق إلى مهاجمة حصن الأكراد بمشاركة الأمراء الأيوبيين في 603هـ/1207م، وأسر عددًا كبيرًا ردًا على ما شنوه من غارات تجاه حمص، وما لبث أن باغت طرابلس وفاجأ نواحيها بعدة غارات ثم عاد قاصدًا دمشق.

سرعان ما تيقن الغرب الأوربي في بداية القرن الثالث عشر الميلادي إزاء ما مني به من كوارث حقيقية كبرى ومفادها أن مفتاح القدس موجود في مصر، وأنه لا بديل أما م الصليبين

([35]) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص291.

للحفاظ على وجودهم في الشام من السيطرة على مصر، ولتنفيذ ذلك دعت البابوية في مجمع اللاتران الرابع إلى حملة صليبية أخرى بعد فشل الحملة الصليبية الرابعة بأحد عشر عامًا تقريبًا 612هـ/1215م.

جهود بني أيوب في درء الحملة الصليبية الخامسة:

انتهى الأمر بقدوم الحملة الصليبية الخامسة إلى عكا 614هـ/1217م، حيث كان ملك الصليبيين حنا دي برين يوالي ترتيباته لغزو مصر، وكان ان انضم اليه ملوك الحملة الجديدة صاحب طرابلس بوهيموند الرابع" واجتمع رأي الفرنج على الرحيل من عكا إلى مصر والاجتهاد في تملكها"[36].

ويطالعنا ابن الأثير[37] بأن الصليبيين لما اجتمعوا بعكا من ساحل الشام خرج إليهم العادل أبو بكر بن أيوب من مصر ، فوصل إلى الرملة واللد، فاضطر الصليبيون إلى الخروج من عكا(ليقصدوه)، لكن العادل اتجه إلى نابلس عله(يسبقهم) إلى نواحي عكا، لكن عساكر الحملة الجديدة سرعان ما سبقوه وأرغموه على النزول في بيسان في شعبان سنة 614هـ لمحاربته(لعلمهم أنه في قلة من العسكر)، وهنا قصد العادل تجاه دمشق حيث نزل في مرج الصفر طلبًا لجمع العساكر من النواحي الشامية، غير أن أهالي هذه النواحي اطمأنوا بوجود

([36]) المقريزي: السلوك، ج1ق1، ص188.
([37]) ابن الأثير : الكامل، ج10، ص374.

العادل ظنًا منهم أن(الفرنج لا يقدمون عليه)، وكان ذلك كله فرصة وظفها الصليبيون لتخريب البلاد، فأقبلوا على بيسان ونهبوها، ونازلوا بانياس حيث أقاموا ثلاثة ايام، وما لبثوا أن عادوا بما لا يحصى من الغنائم والسبي والأسرى، وقبل عودتهم إلى عكا نازلوا صور، وقصدوا بلد الشقيف واستولوا على مغانم عظيمة خلال النصف الثاني من رمضان سنة 614هـ.

ويبدو أن العادل كان –آنذاك– لا يعول شيئًا على حماس الأهالي بالشام الذين ظنوا أنه قد تركهم مطمعًا للأعداء وعاد دون أن يردعهم، ويشير ابن الأثير[38] إلى الملك العادل بقوله:(وبالجملة الذي فعله العادل هو الحزم والمصلحة لئلا يخاطر باللقاء على حال تفرق من العساكر)، معتبرًا سياسة العادل في هذا السبيل عملًا صائبًا يبعده عن المخاطرة وهو في قلة من جنده، ومع ذلك فإنه لم يغفل أمر بيت المقدس، إذ سير ولده المعظم عيسى صاحب دمشق بعد وصوله مرج الصفر إلى نابلس لمنع الصليبيين من دخوله، وفي أثناء ذلك داهم الصليبيون قلعة الطور التي بناها العادل على رأس جبل بالقرب من عكا، ولولا صمود بعض المجاهدين فيها، وقتلهم لبعض قادة الصليبيين، ما تركها الصليبيون بعد ما أقاموا عليها سبعة عشرة يومًا.

قرر حنا دي بريين الإبحار إلى مصر في ربيع الأول 615هـ/1218م، وكان الكامل محمد بن العادل آنذاك في مصر يتلقى من أبيه العادل المساعدات من مرج الصفر، بينما

(38) ابن الأثير : الكامل، ج10، ص374.

كان أخوه المعظم عيسى يرابط بعسكر الشام بأمر من أبيه بنواحي الساحل ليشغل الصليبيين عن غزو دمياط[39]. وكان أن أشار السلطان العادل على ابنه المعظم عيسى بتخريب قلعة الطور لتعذر حفظها، وقربها من عكا، وتوظيف من كان فيها من جند في الدفاع عن دمياط.

في الوقت الذي نزل في الصليبيون على دلتا النيل في مواجهة دمياط كان العادل يباشر الترتيبات الدفاعية مع أبنائه الثلاثة، وبتأثير ذلك بعث ابنه الأشرف موسى صاحب خلاط بنجدة عسكرية بقيادة سيف الدِّين كهدان إلى أخيه الكامل وقت أن كان القتال دائرًا على ثغر دمياط.

ظن حنا دي بريين أن الوصول إلى مصر عن طريق البحر أثر أمنًا من الوصول إليها عن طريق الجبهة الشرقية دونما اعتبار من جانبه بمدى ما يمكن أن يصادفه من عقبات طبيعية تعرقل طريق وصوله، إذ كان عليه أن يتخلص من السلاسل الحديدية بالبرج المنيع على النيل لتسهيل عبور المراكب الصليبية، وكان عليه –أيضًا– أن يواجه برجًا آخر كان يقابل البرج المنيع، وما بهذين البرجين من المقاتلة، حتى ييسر على قواته أمر الصعود في النيل إلى داخل الديار المصرية.

اتخذ الملك الكامل بن العادل صاحب مصر– آنذاك– منزلة تعرف بالعادلية بالقرب من دمياط في مكان يسهل فيه اتصاله بعساكره، التي ملأت الطريق بين العادلية ودمياط، على أن الصليبيين ظلوا على قتال البرج أربعة أشهر حتى ملكوه، في وقت كان فيه السلطان

(39) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص222.

العادل(يجهز عساكر الشام شيئًا بعد شيء إلى دمياط حتى صار عند الكامل من المقاتلة ما لا يكاد ينحصر عده)[40] ، لكن سرعان ما بلغ العادل نبأ استيلاء الصليبيين على برج السلسلة (فتأوه تأوهاً شديدًا... وقد اشتد به مرضه)[41]، وما لبث أن توفي في 7 جُمادى الآخر سنة 615هـ/1218م.

على أن الملك الكامل قبل علمه بخبر وفاة والده العادل قد نصب جسرًا عظيمًا لسد مجرى النهر، فقطعه الصليبيون، فلجأ الكامل إلى غلق المجرى بعدة مراكب عرقلت على المراكب الصليبية طريق عبورها مما جعل الصليبيون يلجؤون إلى حفر خليج كان يجري فيه النيل قديمًا وأجروا فيه الماء ليصل بالبحر، وهكذا عبرت مراكبهم إلى منزلة بورة في الجهة المقابلة للعادلية منزلة الكامل حيث قرروا قتاله لكن دون جدوى، حيث كان النيل سدًا منيعًا حال دون تمكينهم في وقت كانت الإمدادات والميرة تصل إلى أهل دمياط مما منع عنهم أي ضرر.

وفي تلك الفترة جاء بحرًا من أوربا إلى دمياط نجدات عسكرية تشد من أزر حنا دي برين بقيادة الكردينال بلاجيوس، وتولى هذا الأخير قيادة الحملة الصليبية بأكملها مما أوجد ازدواجًا في القيادة أنزلت بالصليبيين أبلغ الأضرار.

([40]) المقريزي: السلوك، ج1ق1، ص189.
([41]) المقريزي: السلوك، ج1ق1، ص190.

أما الجبهة الإسلامية، فقد تعرضت هي الأخرى لظروف صعبة بسبب وفاة السلطان العادل وآثاره التي ألزمت أبناء الملوك بمسؤوليات جسيمة، فضلا عن دخول مصر في أزمة حقيقية سببها ابن المشطوب، الذي حاك مؤامرة لعزل الكامل وإحلال أخيه الفائز في حكم مصر، وإزاء ذلك كله هرب الملك الكامل من العادلية، وتابعه جنوده ليلًا، واتخذ الصليبيون من ذلك فرصة تاقوا إليها، فعبروا في العشرين من ذي القعدة سنة 615هـ النيل إلى دمياط ودخلوها أمنين (بغير منازع ولا مانع) [42]، وصمدت المدينة عدة شهور ن وما لبثت ان سقطت ومما زاد موقف الكامل سوءًا أن العناصر البدوية انتهزت عبور الصليبيين إلى أرض دمياط، وعاثت سلبًا في البلاد المجاورة، وبالغت في نشر الفوضى حتى كانت أشد (على المسلمين من الفرنج)، ولم يكن في المدينة من العساكر ما يحول دون وقف فساد البدو لانشغالهم في حماية المدينة.

ومما يجدر ذكره أنه لولا وصول المعظم عيسى صاحب دمشق إلى أخيه الكامل في ذي القعدة 615هـ، لما قوى هذا الاخير على مناجزة الفرنج، وقام المعظم بإبعاد ابن المشطوب عن مصر إلى الشام حيث نزل عند المنصور صاحب حماة في صحبه من الخدم، كما أبعد أخاه الفائز عن الموصل بحجة طلب النجدة تحليلًا منه على إخراجه، فمات بسنجار وأنهى بذلك على الفتنة، ودخل في طاعة الكل من كان مؤيدًا للفائز من أمراء (كرهًا لا طوعًا)، كما

([42]) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص377.

قصد المعظم عيسى وقبل قدومه إلى مصر أن يستحث أخاه الأشرف موسى للجهاد ضد الصليبيين في دمياط، وهكذا كان لتدخل المعظم عيسى أكبر الأثر في تشجيع أخيه الأشرف موسى على طلب الجهاد، وخرج الأخير بعساكره قاصدًا مصر، ثم خرج المعظم عيسى من دمشق في أثر أخيه الأشرف إلى مصر.

ومهما يكن من أمر فقد أصبحت الجيوش الأيوبية بزعامة الأخوة الثلاثة أبناء العادل نموذجًا للجيش الموحد والقيادة الموحدة، وأرسل الكامل سبعين من مبعوثيه إلى زعماء العالم الإسلامي مستنجدًا لدحر العدوان على مصر.

ولما اشتد بأس الصليبيين اضطر الملك الكامل إلى طلب الصلح عارضًا تسليم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية في مقابل الجلاء عن دمياط، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث إذ طل الصليبيون ثلاثمائة ألف دينار لتعمير القدس، مما دفع المسلمين إلى مواصلة الجهاد يظاهرهم الظروف السيئة التي أحاطت بالعسكر الصليبي، من ذلك ازدواجية القيادة قد خالت دون وحدة كلمة الصليبيين، بدليل أن حنا دي برين وأمراء مملكته والصليبيين الفرنسيين قبلوا الصلح الذي تقدم به الكامل، على حين رفضه المندوب البابوي الكردينال بلاجيوس والاسبتارية والداوية(الذين ظنوا أن امتلاك مصر بات أمرًا سهلًا)، ومن ذلك –أيضًا– أن الصليبيين قد ركبهم الغرور، وظنوا أن القرى تبقى بأيهم((يأخذون ما أرادوا من الميرة)، ولكن خاب ظنهم وتعرضوا لمشاكل جمة.

انسحب الملك الصليبي حنا دي برين من دمياط عائدًا إلى عكا في 617هـ/1220م، وبات بلا جيوس تائهًا بعد رحيله، وبعد مرور أكثر من عام قرر الزحف على القاهرة 618هـ/1221م، وما لبث حنا دي بريين أن عاد إلى دمياط وانضم إليه حتى لا يتهم بالتفريط وعدم التعاون مما يعرضه لنقمة الفرنج جميعًا.

أعد المسلمون بقيادة الكامل عدتهم، فأقاموا خطًا دفاعيًا على الضفة الشرقية للنيل أطلق عليه اسم" المنصورة"، حيث اجتمع بها الأخوة الثلاثة الكامل والمعظم والأشرف–انتظارًا لمناجزة حاسمة، وفي أثناء ذلك كان الكامل يكرر عرضه بطلب الصلح لكنه لم يلق تأييدًا من الصليبيين الذين زادوا في مطالبهم المالية لتدمير بيت المقدس إلى خمسمائة ألف دينار بدلًا من ثلثمائة ألف.

كانت السفن الإسلامية أن اتخذت مكانها في النيل لمنع الطريق على الصليبيين الذين كانوا قد واصلوا زحفهم وسط مثلث كبير تحيط به المياه من ثلاث جهات، هي بحيرة المنزلة شرقًا وفرع دمياط غربًا والبحر الصغير المعروف باسم أشموم طناح–جنوبًا، وحدث ذلك كله ففي وقت لقيت فيه نجدة عسكرية صليبية جديدة تسمى مرمه هزيمة منكرة أمام المراكب الإسلامية التي أحاطت بسفنها ترميها بالنشاب، مما ألجأ الصليبين إلى العودة إلى تجاه دمياط بعد أن خربوا (خيامهم ومجانيقهم)، وهنا اصطدموا بالوحل والمياه(التي قد ركبت الأرض من

حولهم)، مما اضطرهم إلى مراسلة الملك الكامل والأشرف موسى في عرض صلح يطلبون به الأمان مقابل تسليمهم دمياط بدون مقابل[43].

ومهما يكن من أمر فقد أتم الجانبان الصلح على تسليم دمياط في رب سنة 618هـ/1221م، ولتنفيذ شروط الصلح استلم الملك الكامل عشرين ملكًا صليبيًا كرهائن إلى حين يقوم ملك عكا بتسلم دمياط، وتم جلاء الصليبيين عن المدينة في 19 رجب 618هـ/1221م، وبلا مقابل، واضطر حنا دي برين إلى عقد هدنة مداها ثمان سنوات 618–626هـ/1221–1229م، ثم قفل راجعًا إلى عكا.

وصفوة القول فإن الحملة الصليبية الخامسة منيت بالفشل، وعاد ملوكها حيث أتوا دون أن يحققوا هدفًا مرجوا.

سياسة بني أيوب تجاه الحملة الصليبية السادسة:

تبدلت أحوال العالم الإسلامي في الشرق بعد ظهور التتار ونجاحهم بزعامة جنكيز خان في تطويق أراضي الدولة الخوارزمية، وشروعهم في احتواء كافة الممتلكات بالحماية الإسلامية، الأمر الذي جعل الأيوبيين يواجهون آثار ونتائج هذا التطور ، ومما ساعد على ذلك أن الوحدة السياسة والعسكرية التي جمعتهم في مطاردة الصليبيين إبان الحملة الصليبية الخامسة سرعان

([43]) للمزيد انظر: ابن الأثير : الكامل ، ج10،ص377-380.

ما تحطمت بسبب أطماع المعظم عيسى الذي طمع في ممتلكات ابن عمه الناصر صلاح الدِّين قلج أرسلان، واستولى على حماه سنة 620هـ/1223م، ولم ير أخوه الكامل والأشرف موسى بدًا من مواجهته، وطالباه بترك حماه، ووقعت الخصومة بين المعظم عيسى وأخويه، وجاءته الفرصة حينما لجأ إليه الأشرف موسى يستنجد به في درء غارات جلال الدِّين منكبرتي الخوارزمي التي اقتربت من خلاط المشمولة بنفوذه تعويضًا عما لحقه من دمار على أيدي التتار، ومما قيل أن المعظم لم يأبه بالخطر الخارجي لذي سببه المغول وغارات خوارزم شاه مفضلًا مصالحه على حساب البيت الأيوبي، فانتهز قدوم أخيه الأشرف وقبض عليه دون رغبة في إطلاقه إلا بعد أن وافقه على معاونته في الحصول لى حمص وحماه، وفي سنة 624هـ عاد الأشرف موسى إلى بلاده تاركًا دمشق، بعد ما أكد تحالفه المعظم عيسى ضد أخيه الملك الكامل صاحب السلطنة في مصر.

ويُطالعنا المقريزي[44] في أحداث سنة 624هـ بأن الوحشة قد تأكدت بين الكامل محمد وأخويه المعظم عيس والأشرف موسى، فبعث الكامل بتأثير ذلك مبعوثه الأمير فخر الدِّين يوسف ابن شيخ الشيوخ(صدر الدِّين بن حمويه إلى الإمبراطور فردريك الثاني"ملك الفرنج"). امبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة يعرض عليه أن يبادر سريعًا بالقدوم على رأس حملة إلى عكا واعدًا إياه(ببعض ما يلي المسلمين من بلاد الساحل)، ثم تحول الأمر إلى تسليمه البيت

(44) المقريزي: السلوك، ج1ق212،1-213.

المقدس ومواضع يسيره في بلاده، مقابل مساعدته ضد أخيه، ويتجلى لنا مدى ضراوة الخلاف الذي وقع بين الكامل والمعظم عيسى أن الأخير لجأ هو الآخر على طلب النجدة من السلطان الخوارزمي جلال الدِّين منكبرتي، الأمر الذي لم ير الكامل إزاءه سوى طلب العسكر وعمل الاستعداد في بلبيس توطئة للخروج إلى الشام تأديبًا لأخيه، ويشير المقريزي إلى سخونة عداوة كل منهما للآخر بما ذكره من عبارات شديدة وردت ضمن رسالة سرية بعث بها المعظم لأخيه الكامل عند وصوله من مصر إلى الشام بما نصه(إني نذرت الله تعالى أن كل مرحلة ترحلها لقصدي أتصدق بألف دينار، فإن جميع عسكرك معي، وكتبهم عندي، وأنا آخذك بعسكرك).

عاد الكامل إلى مصر سنة 624هـ ليقض على عديد من أمرائه ومماليك أبيه بتأثير ما ورد في رسالة أخيه المعظم من أسرار، ومن هؤلاء الأمراء جانداره وعشرة من المماليك العادلية.

يتضح لنا مما تقدم أن ضراوة اللنزاع بين أبناء العادل أدت إلى استعانة كل منهما بقوة خارجية، وفيما نتصوره أن كليهما كان يخشى على ما تحت سلطانه من أراضي، فالكامل كان بطبيعة الحال يخشى على مصر من أخيه المعظم، وكذا الأخير كان يخشى على أراضيه في الشام من الكامل، وكان ثالثهما وهو الأشرف موسى يرقب كل موقف عن كثب في خدمة مصالحه وكان الأقرب إليه المعظم عيسى، فاستخدمه حفاظًا على ممتلكاته من أطماع جلال الدِّين منكبرتي الذي تحالف مع المعظم عيسى ضد الكامل.

أما الجبهة الصليبية فكانت هي الأخرى تعاني من التمزق بسبب ما وقع من نزاع بين السلطة الدِّينية وعلى رأسها البابا هونوريوس الثالث وخليفته جريجوري التاسع والسلطة الزمنية المتمثلة في الإمبراطور فردريك الثاني ونشوء ذلك العداء راجع إلى كراهية هذا الأخير للبابوية والكنيسة الغربية التي ناصبت أجداده العداء في وقت كان هو فيه عالمًا بأصول الديانات ومثقفًا في المعارف لا يقبل من البابا في روما – بالذات– وصاية أو أمر، فضلًا عن اهتماماته بالعقيدة الإسلامية، وإجادته اللغة العربية وتذوقه الشعر العربي بفعل نشأته في صقليه وتشربه للحضارة الإسلامية، وفوق ذلك كله كان يخشى أطماع البابا في ممتلكاته، وسطو أمراء الإقطاع في ألمانيا، وتحالف المدن اللمباردية ضده في شمال إيطاليا، ولا ننسى علاقة الإمبراطور فردريك الثاني بالإمبراطور اللاتيني في القسطنطينية التي ساءت بسبب عدم اعترافه بسيادته العليا، وزعمه لنفسه يحق ملكيته قبرص.

وكان أن وعد فردريك البابا هونوريوس الثالث بالتوجه إلى الشرق سنة 622هـ/1225م، وللأسباب التي أسلفناها أخذ يماطله ويؤجل مشروعه الصليبي حتى بعد رحيل هذا البابا سنة 624هـ/1227م، وتولية جريجوري التاسع خلفًا له، ولم ينس البابا الجديد ما انطوت عليه سياسة الإمبراطور فردريك الثاني تجاه البابوية، وبتأثير ذلك يلح عليه حتى أقنعه بضرورة الرحيل على رأس الحملة المنتظرة إلى الشرق، وإزاء عدم إتمامه لعملية الزحف لأسباب لم يقتنع بها البابا، أصدر الأخير قراره بحرمانه من الكنيسة في 16 شوال عام 624هـ/سبتمبر 1227م،

واضطر الإمبراطور إلى الانصياع ، فأنطلق لا يلوي على شيء من صقلية 625هـ/1228م، في أثر جموع صليبية سبقته متوجهًا إلى الشام، ولديه أمل في أن يحقق له السلطان الكامل وعوده بتسليمه بيت المقدس.

وهكذا جاءت الحملة الصليبية السادسة إلى الشرق ملعون من البابا وبزعامة إمبراطور محروم من الكنيسة، وفي وقت كان هو فيه محبًا للحضارة الإسلامية والمسلمين.

ولا يخفى علينا الآثار التي ترتبت على تبدل أحوال كل من الجانبين الإسلامي والصليبي، فكلاهما انشغل بمشاكله الداخلية وباتت قدرة كليهما على الدخول في حرب حاسمة ضارية أمرًا غير محتمل ، بل إن الأمر قد صار أكثر صعوبة حين تنامى تأثير هذا التبادل عند الجانب الصليبي بدرجة جعلت البابوية تتوق إلى أخبار تفيد بفشل الحملة طالما أن قائدها إمبراطور دأب على عصيانها وزعزع مكانتها بين الأوربيين، ولا عبرة هنا بالشعارات التي كثيرًا ما لوحت بها، وبلغ بالبابوية الأمر أن آثرت نجاح المسلمين في الحفاظ على بيت المقدس على استعادة الصليبيين له على يد الإمبراطور فرديك، وكان أن راسلت البابوية ملوك بني أيوب محرضه إياهم على عدم إعطاء الإمبراطور فردريك بيت المقدس، ولدينا إشارات أوردها المتخصصون تفيد بأن النزاع بين البابوية والإمبراطورية كان في نظر البابا(أهم بكثير من المعركة بين الصليبيين والمسلمين في بلاد الشام)، وفي ذلك دليل يقطع بأهمية عوامل أخرى بجانب الدِّين اعتملت في نفوس الين روجوا للحروب الصليبية وساهموا في اندلاعها، وأن الحروب في

جانب كبير منها تمثل حركة استعمارية استهدفت غزو الرشق الإسلامي ونهب ثرواته وموارده لصالح البابوية وملوك أوربا.

ومهما يكن من أمر فقد خرج الإمبراطور فردريك الثاني من صقلية على رأس حملة قوامها خمسمائة جندي قاصدًا عكا لا ليحارب، بل ليتفاوض من أجل الحصول على بيت المقدس، وعلى نحو ما ذهب إليه أستاذنا والمؤرخ الدكتور سعيد عاشور بأنه قدم من أوربا ليقوم بنزهة جميلة في الشرق يزور خلالها سلطان مصر.

على أن السلطان الكامل وجد نفسه بأنه ليس في حاجة إلى مساعدة الإمبراطور فردريك الثاني بعد وفاة أخيه المعظم عيسى بدمشق في ذي الحجة 624هـ/1227م، لكنه أدرك أن أطماع الخوارزمية والتتار في بالأراضي الأيوبية أمر يمنعه من مجاهرة عدائه للصليبيين بينما وجد الإمبراطور فردريك الثاني مضطرًا إلى مراسلة الكامل بلطف طالبًا منه تحقيق وعوده التي لولاها ما قدم إلى الشرق، وما عرّض نفسه لهذا الحرج أمام البابوية وأوربا، وفي ذلك يذكر المقريزي[45] ضمن رسالة شفهية حملها مبعوث الإمبراطور إلى الكامل بما نصه(الملك يقول لك كان الجيد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شيء، ولا أجيء إليهم، والآن قد كنتم بذلتم لنائبي.... الساحل كله وإطلاق الحقوق بالإسكندرية، وما فعلنا، وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم ، وإعادتها إليكم... فلا أقل من أعطاني ما كنتم بذلتموه...).

([45]) المقريزي: السلوك، ج1ق1، ص228.

وكان السلطان الكامل–آنذاك– يخشى عداء ابن أخيه الناصر داود في دمشق واستنجاده بالخوارزميين فضلًا عن ما أصابه من خوف إزاء ما أقدم فرسان الإسبتارية في الشرق من تشييد حصن قريب من صيدا واستيلاؤهم على صيدا نفسها بعد أن كانت مناصفة وتماديهم في عمارتها، وإقدامهم على طرد من فيها من المسلمين في وقت كان يفاوض فيه الإمبراطور فردريك.

وكثر تردد الرسل بين السلطان والإمبراطور وكان أبدى الأول مخاوفه وإحساسه بتورطه مع الثاني، في وقت كان فردريك يتذلل إليه بعد علمه باعتداء البابا على ممتلكاته في أوربا مخاطبًا إياه في رسالة" أنا مملوكك وعتيقك، وليس لي عما تأمره خروج... فإن رجعت خايبا انكسرت حرمتي بينهم، وهذا القدس هي أصل اعتقادهم... فإن رأي السلطان أن ينعم علي بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقه منه، ويرتفع رأسي بين ملوك البحر...".

وبتأثير ذلك وافق السلطان الكامل على عقد معاهدة يافا في ربيع الأول 626هـ/فبراير 1229م، وبمقتضاها وعلى نحو ما أورده المقريزي[46] تقررت الشروط التالية:

1– تنعقد هدنه بين الجانبين لمدة عشرة سنين وخمسة أشهر وأربعون يومًا ابتداء من 18 ربيع الأول 626هـ/فبراير 1229م.

2– تسلم القدس للإمبراطور فردريك الثاني.

(46) المقريزي: السلوك، ج1ق1، ص230.

3- تظل القدس بعد تسليمها خرابًا ولا يجدد سورها.

4- تبقى كافة قرى القدس بأي المسلمين لا حكم فيها للفرنجة.

5- يبقى الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى بأي المسلمين لا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط، ويتولاه قوام من المسلمين، ويقيمون فيه شعائر الإسلام والصلاة.

6- تكون القرى بين عكا ويافا وبين لد والقدس بأيدي الفرنج دون ما عداها من قرى القدس.

استنكر المسلمون ما أقدم عليه الكامل، مستعظمين ضياع القدس، ومما قيل أن الأئمة والمؤذنين حضروا إلى (مخيم الكامل) مؤذنين على باباه في عير وقت الأذان، فعز ذلك عليه، وأمر بأخذ ما كان معهم من الستور والقناديل الفضة والآلات قائلا لهم(امضوا إلى حيث شئتم)، وكان أن اشتد بكاء الناس، وعظم الصراخ والعويل، وكان رد الكامل: إنا لم نسمح للفرنجة إلا بكنائس خراب، والمسجد على حاله، وشعار الإسلام قائم، ووالي المسلمين متحكم في الأعمال والصنيع).

وتشير المصادر إلى أن الإمبراطور فردريك الثاني كان يستجدي ويتذلل بدافع الحفاظ على مكانته في الغرب باعتباره أكبر ملوك البحر مستغلًا صداقته للمسلمين وقربه من الملك الكامل الذي أصابه الضعف بسبب تسامحه وليونته وخوفه من تصدع الجبهة الأيوبية وأطماع

القوى المجاورة فيما تبقى لها من صمود. وقد اعتذر الإمبراطور فردريك لمبعوث السلطان الكامل قائلًا بأنه(لولا يخاف انكسار جاهه، ما كلف السلطان شيئًا من ذلك، ما له غرض في القدس ولا غيره، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج)، وهكذا لم يعد لملوك الصليبيين هم سوى خدمة مصالحهم.

أما معاهدة يافا فقد لقيت – على خلاف ما سبقها من معاهدات–استنكارًا من الجانبين، فأسلفنا الإشارة إلى أن المسلمين ارتاعوا لما جرى من عقدها، (واشتد تشنيع الملك الناصر داود صاحب دمشق على عمه الملك الكامل)، وراسل الكامل خليفة المسلمين في بغداد، وحكام الشرق يطالبهم بتسكين قلوب الناس، وطمأنتهم، والأخذ بخواطرهم(من انزعاجهم لأخذ الفرنج القدس)[47]، أما الفرنج فقد عابوا على فردريك أخذ القدس بغير حد السيف، وأنكروا احتفاظ المسلمين بمزاراتهم، كما رفضوا الحصول على بيت المقدس دون أن يصحبه استيلاء على شرق الأردن، في وقت حصلوا فيه على بيت المقدس الذي لم يصله بعكا– طبقًا لنتائج حملة فردريك الثاني– إلا طريق ضيق.

على كل حال لم تأخذ هذه الحملة صفة الحرب المقدسة، لانشغال طرفي النزاع بأحوالهما، وفي النهاية نجح فردريك في دخول بيت المقدس بسهولة في ربيع الثاني 626هـ/1229م، بعد مرور شهر على إبرام المعاهدة وقيامه بتتويج نفسه ملكًا، وبقائه بالقدس

(47) المقريزي: السلوك، ج1ق1، ص232-233.

مدة لا تزيد كثيرًا عن شهر، وما أن أتم ذلك اتجه إلى أوربا ليحصل من البابا جريجوري التاسع في جُمادى الثانية 626هـ/أغسطس 1229م على الإبراء.

ظلت الجبهة الإسلامية تعاني التصدع بعد ضياع بيت المقدس فترة زمنية قاربت شت سنوات(626-632هـ/1229-1235م)، بسب النزاع الذي نشب بين الأيوبيين والقوى الإسلامية المجاورة، مما عاد بالسلب على المسيرة الجهادية للبيت الأيوبي، ومحاولات أبنائه من أجل استرداد بيت المقدس.

ذلك أن جلال الدِّين خوارزم شاه باغت خلاط المشمولة بحماية الأشرف موسى في أوائل شوال 626هـ/1230م، وظل يحاصرها حوالي ستة شهور حتى ملكها عنوة في 28 جُمادى الأولى 627هـ/1230م، مسرفًا في القتل والنهب، وإزاء ذلك توحد الأيوبيين طالبين النجدة من علاء الدِّين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم، وكان طامعًا في ممتلكاتهم، وتزعم الأشف موسى القوات الأيوبية بعد عودة الكامل إلى مصر لمعالجة فتنة كان قد آثارها ابنه الصالح نجم الدِّين أيوب، وانتهى الأمر بان انطلقت الجيوش المتحالفة من سيواس زاحفة على خلاط ، وأوقعت بجيش خوارزمشاه في 17 رمضان 627هـ/1230م، واسترد الأشرف موسى المدينة، وما لبث أن قتل جلال الدِّين خوارزم شاه منكبرتي بأيدي الأكراد 629هـ/1231م، بعد أن نال هزيمة قاضية بنواحي ميافارقين، ولما انتهى أمر ذلك النزاع دخل الأيوبيون في وحدة جديدة بزعامة الكامل لدرء خطر سلاجقة الروم وسلطانهم علاء الدِّين كيقباذ الذي

نازعهم ملكية خلاط سنة 631هـ/1134م، لكن الأيوبيين انفضوا من حول الملك الكامل حين شعروا بغروره وطمعه في بلاد الشام، فأوجس الأشرف موسى في نفسه خيفة، وزين لبني عمه وأقاربه الخروج لمناهضة الكامل وتم له ما أراد، فراسلوا جميعًا سلطان سلاجقة الروم بالوقوف معه ضد سلطانهم وكبيرهم الكامل الذي علم بخيانتهم فكتمها وقفل راجعًا إلى مصر، وكان من أثر ذلك أن استولى السلطان علاء الدِّين كيقباذ سنة 631هـ على قلعة خرتبرت وست قلاع أخرى كانت لملوك الأراتقة.

استرداد بيت المقدس:

مما زاد الأمر سوءًا وأدى إلى عجز البيت الأيوبي عن مواصلة الجهاد ضد الصليبيين انقسام البيت الأيوبي مرة أخرى، فما لبثت أن انتقلت عداوة الأشرف موسى لأخيه السلطان الكامل، بعد وفاة الأول 635هـ/1237م، والثاني بعده بشهور 635هـ/1237م لنراها بين ولدي الكامل الصالح نجم الدِّين أيوب والعادل الثاني بسبب منازعة الأول للثاني حول السلطنة الأيوبية، وبدأ ذلك باستيلائه على دمشق في جُمادى الآخرة 636هـ/1229م، وكان أن جمع أنصارًا من الخوارزمية الذين تبعثروا في الشرق بعد وفاة سلطانهم جلال الدِّين منكبرتي ، وبينما هو على دمشق أخذ يفكر في دخول مصر معتمدًا على هؤلاء الأنصار متطلعًا إلى إقصاء أخيه العادل الثاني للفوز بالسلطنة، لكن مشروعه هذا قد تعطل حوالي خمس سنوات بعد أن فقد دمشق التي دخلت في حوزة عمه الصالح إسماعيل صاحب بعلبك في 23 صفر

637هـ/1240م، ووقوعه أسيرًا في قبضة ابن عمه الناصر داود صاحب الكرك الذي دخل في طاعة ابن عمه وأخي الصالح السلطان العادل الثاني، لكن الناصر داود سرعان ما خرج على طاعة السلطان العادل الثاني، مفضلًا التحالف مع الصالح نجم الدِّين أيوب واعدًا إياه بالمساعدة حتى يحظى بالسلطنة التي طالما كان يسعى إليها شريطة أن يمنحه(دمشق وحمص وحماه وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر ونصف ديار مصر ونصف ما في الخزائن من المال والجواهر والخيل والثياب وغيرها)، وكان أن وافقه الصالح (على هذا كله وهو تحت القهر والسيف)، وانتهى الأمر بعزل العادل الثاني الذي أساء إلى أمرائه ووقع في قبضتهم، وتولية أخيه الصالح نجم الدِّين أيوب السلطنة في مصر في ذي الحجة 637هـ/1240م، وكان أن استعان كل من الصالح نجم الدِّين أيوب وأخيه العادل الثاني في نزاعهما بأنصار من الأمراء الأيوبيين، وأخذ ذلك النزاع يزداد ضراوة بعد أن تنكر الصالح أيوب لابن عمه الناصر داود، ورفض أن يؤدي إليه القطيعة مما جعله يخرج عليه جامعًا حلفًا من أمراء دمشق وحمص والكرك، والصليبيين الذي حالفوه مقابل قلعتي شقيف أرنون وصفد وجانب من ساحل بلاد الشام.

لم تر البابوية أي غضاضة في إرسال جموع صليبية أخرى إلى الشرق مستغلة ذلك النزاع الذي نشب بين الأيوبيين، فأرسلت 637هـ/1239م حملة بقيادة ثيبوت الرابع الفرنسي بغية تحقيق مكاسب أكبر مما حصلوا عليه بعد دخول فريدريك الثاني بيت المقدس الذي انشغل عنه الأيوبيون– تمامًا– ليظل في أيدي الصليبيين فترة من الوقت.

وكان أن تشجع الناصر داود لاسترداد بيت المقدس الذي كان خربا خاليًا من الحاميات الدفاعية طيلة عشر سنوات تقريبًا، ولم يجد الملك الناصر صاحب الكرك آنذاك بتأثير ذلك أي صعوبة في دخوله متحججًا بعناصر حملة ثيبوت التي دخلته وعمرته مخالفة شروط الصلح مع المسلمين، لكن هذه العناصر الصليبية وجدت في معاداة الصالح إسماعيل صاحب دمشق للصالح نجم الدِّين أيوب والناصر داود فرصة للدخول في تحالف معه بعد أن وعدهم بمنحهم بيت المقدس مرة ثانية، ولما قام بتنفيذ وعده، ساروا معه إلى غزة قاصدين مصر لغزوها لأخذ جزء منها كان قد وعدهم به الصالح إسماعيل إذ مكنوه من الصالح صاحب مصر والسلطنة، لكن قوات الصالح إسماعيل خذلت الأمراء الايوبيين المتخاذلين وحلفائهم الصليبيين، حيث انضمت إلى جيش الصالح نجم الدِّين أيوب، وأوقعت بالصليبيين هزيمة منكرة، مما دفعهم إلى عقد صلح مع السلطان الصالح صاحب مصر 638هـ/1240م، ولم يجد الصليبيون بدا إزاء هذه الهزيمة من العودة إلى أوربا مرورا بعكا.

ويبدو أن البابوية كانت على يقين من أن الخلاف بين ملوك الأيوبيين سوف يظل مستمرًا الأمر الذي من شأنه أن يحقق للصليبيين نتائج بدون قتال؟ ومن ثم فإن إرسالها لحملة مغمورة قليلة الحيلة ضعيفة التكوين برئاسة القائد الإنجليزي ريتشارد دي كورونول في أعقاب رحيل حملة ثيبوت ليس غريبًا، ومع ذلك فقد حققت الحملة انتصارًا حقيقيًا من خلال اتفاقية عقدها قائدها مع الصالح نجم الدِّين أيوب صاحب مصر وسلطان بني أبوب وفي هذه الاتفاقية

اعترف صاحب مصر للصليبيين بملكية الحصون التي آلت إليهم في فلسطين فضلًا عن بيت المقدس، وسمح لهم بتحصين عسقلان 638–1241م، في وقت تجدد فيه النزاع بين جبهته بمساندة خوارزمية وعمه الصالح إسماعيل في دمشق ومعه حليفه الناصر داود – صاحب الأردن– وكان أن استعان كل طرف بالصليبيين لضرب الاخر معترفين لهم في 641هـ/1243م بإقرار مبدأ الاستيلاء على بيت المقدس بما في ذلك الأماكن المقدسة التي في حوزة والمتمثلة في الحرم الشريف والمسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وآثر الصليبيون التحالف مع الصالح إسماعيل والنصار داود اللذين انضم إليهما المنصور إبراهيم صاحب حمص، ونتج عن ذلك أن عاث الصليبيون في الأراضي المقدسة دون مراعاة لحرمتها، وشوهدت الرهبان على الصخرة وعليها قنائي الخمر، وظهرت الأجراس في المسجد الأقصى، وأبطل الأذان بالحرم.

وكان الحلفاء الثلاثة الصالح إسماعيل والناصر داود والمنصور إبراهيم قد قرروا غزو مصر بمساعدة الصليبيين، فحشدوا قواتهم عند غزة، فاستعان الصالح نجم الدِّين أيوب عليهم بالخوارزمية الذين عبروا الفرات في اتجاه الشام، وانطلقوا وقوامهم عشرة آلاف جندي قاصدين بيت المقدس، وكان قد خلا تمامًا من الحماة الصليبيين لانشغالهم ملوكهم وقادتهم بمشاكلهم الخاصة، وتفضيلهم أحرار نتائج بطريق السلم بديلًا عن الحرب بدافع ذلك التوتر الذي ساد العلاقات بين أبناء البيت الأيوبي، وانتهى الأمر بأن طوق الخوارزميين بيت المقدس، ودخلوه متعقبين من به الصليبيين، وظلوا على تلك الحال حتى استولوا عليه استيلاءً

تامًا في سنة في سنة 643هـ/1244م، ولما فرغوا من فتح بيت المقدس نزلوا بغزة حيث راسلوا السلطان الصالح نجم الدِّين أيوب الذي هنأهم، وبعث إليهم بالخلع والأموال.

ومهما يكن من أمر فقد فرح المسلمون بتأثير ما مني به الصليبيون من الهزائم على أيدي الصالح نجم الدِّين أيوب، واستردادهم لبيت المقدس، وهكذا زينت مصر زينة لم ير مثلها، وضربت البشائر، وسبق أسرى الصليبين، ومن تعاون معهم من جنود الشام إلى السلطان في مصر في مظهر مشهور.

وقصارى القول فإن النزاع بين الملوك الأيوبيين استعاض عنه الأهلون في الشرق وجنودهم بالجهاد رغبة في الدفاع عن الإسلام وأراضيه المقدسة، مما كان له أكبر الأثر في استرداد بيت المقدس على أيدي الخوارزمية ليظل كذلك، وعلى مدى قرون طويلة وحتى الحرب العالمية الأولى.

كان الصالح نجم الدِّين أيوب سلطان الأيوبيين يدرك أهمية الوحدة بين ملوك الأيوبيين وعملا بسياسة السلاطين الكبار، أخذ ينظر إلى هؤلاء الملوك خصوم ومحالفين، فوجد أن الضرورة تحتم اخضاعهم جميعًا تحت سيطرته، وبالذات ملوك دمشق والكرك وحمص الذين تحالفوا مع الصليبيين لإقصائه عن السلطنة، وكان أن شرع في المضي قدما من أجل مشروعه الوحدوي بعد أن أوقع بحشود هؤلاء الملوك ومعاونيهم من الصليبيين عند غزة، وأفقد الصليبيين قدرتهم القتالية التي منيت بخسارة قدرت بالآلاف، وأوقعت جنودهم بين القتل والأسر، كما فرض حصارًا حول دمشق حتى استسلمت سنة 643هـ/1245م، ومنع الخوارزمية من دخولها مما دفع بهم إلى الثورة ، وكان أن انضم إليهم الصالح إسماعيل والناصر داود، وحاصروا دمشق انتقاما من الصالح نجم الدِّين أيوب، لكن الصالح استمال المنصور إبراهيم– صاحب حمص– وكذا الحلبيين، وتخلص من قائده ركن الدِّين بيبرس لخروجه عن طاعته، وانهى كل ذلك بالإيقاع بالخوارزمية، وبدد شملهم واتجه نحو الصليبيين سنة 645هـ/1245م، فانتزع منهم قلعة طبرية وعسقلان، وأقبل عليه ملوك بني أيوب يقدمون إليه الولاء والطاعة في الشام، وقام بزيارة مدينة بيت المقدس حيث أحاطها بالتحصينات، وهكذا جمع الصالح نجم الدِّين أيوب في قبضته بين القاهرة ودمشق وبيت المقدس.

مما لاشك فيه أن ما أحرزه سلطان الأيوبيين من نجاح قد أوغر صدر البابوية وجعلها تخطط لحملة صليبية جديدة تعيد إليها ما ضاع منها، وبالفعل أخذ البابا أنوسنت الرابع يعد عدته دونما اعتبار لحالة اليأس والإحباط التي كان يمر بها ملوك أوربا آنذاك، ودونما نظر إلى ما ألم بالصليبيين في عكا وقبرص من ضعف ووهن ، فضلًا عن ضراوة النزاع بين البابوية والإمبراطورية التي كان عليها الإمبراطور فردريك الثاني صديق الملك الصالح نجم الدِّين أيوب.

كان طبيعيًا أن يشهد الحماس الأوربي القديم تراجعًا مؤثرًا في توجيه ضربات صليبية للشرق الإسلامي، ذلك أن الصليبيين قد يأيسوا من تحقيق مكاسب مادية بعد مرور فترة زمنية طويلة الأجل بين نهاية القرن الخامس وإلى منتصف القرن السابع الهجريين، فقدوا خلالها غالبية ممتلكاتهم، وبفعل ذلك لم يكن لمعظمهم حرص على على الدخول في مغامرة قتالية بعد ما مني أكفائهم بهزائم متكررة لأسباب تعود في معظمها إلى تبدد أحوالهم، باستثناء من خرج بدافع ضد الإسلام، وتجلى ذلك فيما حفلت به تاريخ البابوية آنذاك.

انعقد مجمع ليون في فرنسا بدعوة من البابا في المحرم 643هـ/يونيو 1245م، لمقاومة أطماع إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ومناقشة أوضاع الصليبيين في الشرق، وانتهى المؤتمرون إلى ضرورة إرسال حملة صليبية جديدة إلى مصر، لكن النزاع بين بين السلطتين في أوربا جعل كل من ألمانيا وإيطاليا يرفضان المشاركة في هذه الحملة، بينما كان التعصب ضد الإسلام دافعًا الملك الفرنسي لويس التاسع لأن يساعد البابوية.

ومما قيل أن الدافع الذي هيأ الملك الفرنسي بالذات للمشاركة في مساندة البابوية دون الآخرين من أقرانه بين ملوك أوربا نذر نذره أثناء مرض ألم به بأن يخرج حاملًا صليبه إلى الأراضي المقدسة في الشرق في حالة إذا ما برئ من مرضه، وتواترت الأخبار عند بعض المؤرخين الأوربيين بأن لويس التاسع تعهد بالقيام بحرب مقدسة لإنقاذ صليبي الشرق اثر رؤيا انتابته في مرضه مفادها أن مسلم قتل نصرانيًا وانتصر عليه، وأنه ظن بأن الله بهذه الرؤيا قد اختاره للقيام بهذه الحملة، كما أشيع عنه بأنه القديس الورع النقي صاحب الفضائل والقريب من الكنيسة ورجال الدِّين بمواقفه الثابتة.

وفي الحقيقة فإن دعوة البابا لملوك أوربا قد انبثقت من نظرة علمانية مطلقة لمعالجة الكثير من المزالق التي ألمت بأوروبا والصليبيين في الشرق على حد سواء، فقد استعاد الملك الصالح نجم الدِّين طبرية وعسقلان، واستولى على بيت المقدس بمساعدة الخوارزمية الذين الحقوا بالصليبيين في الشرق الدمار والويلات، مما كان له أكبر الأثر في إقبال الأوربيين على طلب الثأر دون إبداء استعداد في المشاركة باستثناء الملك الفرنسي الذي وافق البابوية لجمعه بين الهدف الثأري، ودافع التعصب، إذ كان (من أعظم ملوك الفرنج، وأشدهم بأسا..).

ويتجلى لنا ضراوة الصراع الذي استمر بين البابا والإمبراطور فيما حمله هذا الأخير سرًا إلى صديقه الملك الصالح نجم الدِّين أيوب بأخبار حملة لويس التاسع موضحًا له خط سيرها.

ويُشير العيني في أحداث سنة 646هـ إلى أن السلطان الصالح نجم الدِّين أيوب كان منشغلًا بالشام بمشاكل آثارها الحلبيون حول حمص في وقت علم فيه بأخبار الحملة، وقاسى فيه آلام المرض، وبينما هو على تلك الحال اضطر إلى الرحيل عن الشام قاصدًا مصر حيث نزل بأشموم طناح ليكون في مقابلة(الفرنج إن قصدوا دمياط)، وهكذا نثبت من صدق الأخبار التي وصلت إليه، فقد وصلت الحشود الصليبية بقيادة لويس التاسع قبرص في جُمادى الأولى 646هـ/1248م، حيث قرروا مهاجمة دمياط.

وكان أن أعد الصالح نجم الدِّين أيوب تجهيزاته العسكرية، ورتب على دمياط العساكر، ووضع لها الذخائر، وأحكم شوانيها، منتظرًا قدوم الحملة الصليبية التي أبحرت بالفعل إلى دمياط في صفر 647هـ/يوليو 1249م، وشرعت في النزول على البر الغربي حيث كانت عساكر المسلمين بقيادة فخر الدِّين ابن شيخ الشيوخ تتواجد للدفاع عن المدينة، والتحم الجانبان في معركة ضارية دارت فيها الدائرة على الأمير فخر الدِّين الذي ما لبث أن تحول بجنوده إلى البر الشرقي حيث تقع المدينة نفسها، وتقهقر شيئًا حتى بلغ أشمون طناح، وإزاء ذلك كله انزعج أهالي دمياط، فهجروا مدينتهم، تاركين للجند الصليبي المجال مفتوحًا للاستيلاء عليها، بغير قتال، وبالفعل دخلوها، وحازوا كل ما وجدوه بها من (العدد، والأسلحة والخائر والغلال والمجانيق...)[48].

(48) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص330.

آثر لويس التاسع البقاء في دمياط شهورًا انتظارًا لوصول إمدادات عسكرية وكان أن تمكن الصالح نجم الدِّين أيوب منتهزًا فترة الانتظار هذه من اعداد عدته للمواجهة، فبدأ بعقاب الذين تخاذلوا أمام الصليبيين ومكنوهم من دمياط، فأمر (بشنقهم جميعًا)، ثم سار على رأس جنده إلى المنصورة حيث نزل في المنزلة التي كان أبوه ينزلها)، واجتمع إليه بها أعداد غفيرة من المطوعة والعربان.

وهكذا أخذ السلطان يرتب صفوفهم، ويجهزهم بأدوات القتال دونما اعتبار للمرض الذي ألم به، وبينما هو على تلك الحال من الاهتمام بأمر مناجزة الفرنج إذ بالموت يفاجئه في شعبان 647هـ/1249م، ولم تر زوجته شجر الدر بدا من اخفاء خير وفاته(مخالفة على المسلمين)، وحتى لا يصل إلى العدو.

سرعان ما علم الصليبيون بوفاة السلطان الصالح بعد أن شاع بين عامة المصريين، فروعوا في بدء المسير إلى داخلية البلاد متخذين طريق الدلتا الضفة الشرقية زخفًا نحو الجنوب بهدف الوصول إلى القاهرة، لكنهم توافقوا عند المنصورة على نحو ما أقبل أقرنهم عليه فيما سبق سنة 617هـ/1220م، ذلك أنهم تعرضوا لمخاطر النيل الذي فصل بينهم وبين المنصورة، وللخروج من هذا المأزق عبروا بحر أشموم ودهموا مدينة المنصورة دون أن يستجيبوا إلى ما أصدره الملك لويس من تعليمات تطالبهم بالتمهل، ولما انتشروا في شوارع ودروب وطرقات المدينة تصدى لهم المماليك البحرية حتى أنزلوا بهم هزيمة قاسية أوقعت

بينهم الضحايا بالآلاف في المحرم سنة 648هـ/1250م، بعد قتال دار بين الجانبين أشهرًا ضعف خلالها حال الفرنج(لانقطاع الميرة عنهم)، ووباء ألم بخيلهم[49]، ولا يخفي علينا الآثار التي ترتبت على انتصار المماليك في المنصورة، إذ أعاد الثقة إلى المسلمين وجعلهم يتطلعون إلى الخلاص من الصليبيين.

وكان أن وصل المعظم توران شاه إلى المنصورة قادمًا من حصن كيفا ملبيًا نداء شجر الدر، في وقت كان القتال على أشده فتشجع للجهاد بعد أن نودي به سلطانًا خلفًا لأبيه، وارتفعت الروح المعنوية للجنود.

وكان أن ترتب على هول المعارك، وهزيمة الصليبيين في المنصورة أن قرر لويس التاسع الارتداد إلى دمياط ليقع في نفس المأزق الذي وقع فيه أقرانه من قبل سنة 617هـ/1220م، ما عرضه إلى الوقوع في الهزيمة –أيضًا– ذلك أن السلطان الجديد أعد سفنًا بعد أن جهزها بالعدد والعدة، ووضعها إلى شمالي المعسكر الصليبي، وفاجأ بها المراكب الصليبية التي سرعان ما وقع جنودها بين القتل والأسر، وانقطع اتصالها بالقاعدة في دمياط، وكان ذلك كله سببًا في لجوء الملك الفرنسي إلى طلب التفاوض، والهروب إلى دمياط.

اتجه الصليبيون إلى دمياط عائدين، وعند قرية منية أبي عبد الله على الشاطئ الشرقي لفرع دمياط ناحية فارسكور باغتهم المسلمون، وأوقعوهم قتلى وأسرى، ومما قيل أن ما أسر

(49) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص364.

في قبضة المسلمين قد بلغ نيفا وعشرين ألف، فضلًا عن سبعة آلاف وقعوا قتلى وغرقى، الأمر الذي يعكس ما انطوت عليه هذه المعركة من شراسة أبداها المجاهدون، وكان من جملة الأسرى الملك الفرنسي نفسه، حيث أمر بإيداعه السجن، ومن معه ف يدار ابن لقمان بالمنصورة.

كان لانتصار المسلمين على الصليبيين بقيادة لويس التاسع أكب الأثر في نفوس المسلمين، وراسل المعظم توران شاه جمال الدِّين بن يغمور نائب الشام مهنئًا إياه والمسلمين بالنصر المؤزر.

ظل الملك لويس التاسع حبيسًا ضمن جموع الأسرى في دار ابن لقمان إلى أن أطلق سراحه مقابل فداء نفسه وجيشه، والرحيل بجنده عن دمياط، وهكذا عقد الجانبان معاهدة شريطة أن يستمر الصلح بينهما عشر سنوات. على أنه قد تفاوض الطرفان من أجل تنفيذ الصلح وجلاء القوات الصليبية عن دمياط بعد مرور فترة قصيرة الأجل كانت قد مرت خلالها دولة الأيوبيين بظروف سياسية انتهت بمقتل السلطان توران شاه وقيام شجر الدر بديلا عنه في السلطنة لينتهي الأمر بسقوط دولة الايوبيين وانتقال السلطنة في مصر والشام إلى العصر المماليكي.

تاريخ دولة المماليك البحرية

الفصل الأول

قيام الدولة المملوكية

تعريف بالمماليك:

المملوك وجمعه مماليك اسم مفعول من الفعل « ملك»، ويبدو أن هذا المعنى مأخوذ من القرآن الكريم، فقد وردت عبارات « ملكت أيمانكم» و« ملكت إيمانهم» و« ملكت يمينك»، ويفهم من ذلك أن المملوك عبد مملكة بفتح اللام أو ضمها إذا سبي وملك دون أبويه.

ولم يلبث لفظ المملوك أن اتخذ معنى اصطلاحيًا خاصًا في التاريخ الإسلامي، ومن ثم أصبح يقصد بالمماليك: جموع الرقيق الأبيض الذين كانوا يصبحون رقيقًا إما نتيجة الأسر في ميادين الحرب، أو بالشراء من التجار الذين يجلبونهم إلى البلاد الإسلامية رغبة في بيعهم بأثمان مرتفعة، واقترن ذلك اللقب بالرقيق الأبيض دون السود، وكانت بلاد الترك في وسط آسيا وأنحاء كثيرة من أوربا ومن بلاد بحر البلطيق المصدر الرئيسي الذي أتي منه المماليك، وكان هؤلاء المماليك يفخرون بأنفسهم وانتمائهم إلى الأتراك، إذ لعب المماليك دورًا مهمًا في تاريخ الدولة الإسلامية.

وانتسب المماليك إلى تجار النخاسة(تجار الرقيق) أحيانًا وإلى سادتهم الذين اشتروهم أحيانًا أخرى. كما انتسب بعضهم إلى الثمن الذي دفع عند شراء أحدهم إن كان المبلغ كبيرًا، وسادت علاقة أستاذية بين السيد ومماليكه فهو أستاذهم وسيدهم، وعلاقتهم به قوية، لأنه هو الذي رباهم وانفق عليهم ورعاهم رعاية إسلامية فتنشأ عن ذلك رابطة لا انفصام لها بين الأستاذ ومماليكه، فيكونون دومًا رهن إشارته وينفذون أوامره، وكانت تربط الأمراء الذين عاشوا عند سيد واحد علاقة الخشداشية أي الزمالة، فهم جميعًا زملاء وأصدقاء وكانوا يؤمنون أنهم جميعًا متساوون في النشأة والأصول والحق والواجب ولم يكونوا عبيدًا للخدمة فقط مثل غيرهم في البلاد الإسلامية إذ كانوا يرون أن السلطان واحد منهم، وكان هؤلاء المماليك يحررون ويعتقون فيتسلمون المناصب العليا في الدولة مثل قيادة الجيش أو نيابة الأقاليم، أو وظيفة من من وظائف الدولة العليا تمشيًا مع روح الإسلام التي تتركز على المساواة بين الآدميين والتي تجعل من التقوى في المعيار الذي يوزن به المرء في حياته الدنيا والآخرة.

واهتم سلاطين الأيوبيين وكذلك سلاطين المماليك من بعدهم بتربية المماليك تربية إسلامية، يتعلمون القراءة والكتابة وحفظ أجزاء من القرآن الكريم، والوقوف على معالم السيرة النبوية الشريفة حتى إذ فرغوا من ذلك انتقلوا إلى التدريب العسكري وتعلم أساليب الحرب، وفنون القتال. وكان

المماليك في هذه المرحلة يقسمون إلى طوائف، وكل طائفة يتسلمهم معلم فيعلمهم السباحة وركوب الخيل واللعب بالسيوف والضرب بالرماح والقذف بالأطواق والمبارزة ورمي النشاب ولعب الكرة بقصد إصابة الهدف، فيكون جنديًا كاملًا يلتزم بالطاعة وإتباع الأوامر وتنفيذها. وكان المملوك إذا ما ظهرت كفاءته وشجاعته في ميدان القتال والمبارزة أمكن ترقيته وعتقه وإدراجه في سلك صفوف الجيش، أو غير ذلك من المناصب العليا في الدولة.

واستطاع المماليك خلال فترة حكمهم التي امتدت ما بين سنتي 648-923هـ/1250-1517م، في التصدي لأعداء الإسلام في الشرق والغرب وجاهدوا باسم الله وفي سبيله ضد أعداء الإسلام والمسلمين، ولقد اعترف لهم بهذا الفضل الكثير من المسلمين وغيرهم.

ومنذ العصر العباسي استُخدم المماليك في العالم الإسلامي فقام الخلفاء العباسيين باستخدامهم، وكان الخليفة المأمون أول من استخدمهم في بلاطه ولما تولى الخلافة المعتصم شعر بخطورة الاعتماد على العناصر الفارسية في حماية الدولة وحفظها، وفضلًا على أن ثقة الخليفة قد ضعفت في العرب لكثرة تمردهم، ولهذا اتجه المعتصم لاستجلاب عناصر غير عربية من التركمان، وكون منهم فرقًا عسكرية لتدعيم نفوذه وحفظ دولته، وأحاط نفسه بجيش من التركمان والترك وسار من جاؤا بعده على نفس هذه السياسة واتخذوا منهم حرسًا خاصًا لهم كانوا يشكلون القوة الأساسية في الجيش في الولايات التابعة للخلافة العباسية.

واستخدم المماليك بكثرة في مصر على عهد الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية، وكان الفاطميون(358-567هـ/969-1171م)، في حاجة إلى جيش كبير يوطدون به أركان دولتهم في مصر، ويمكنهم من السيطرة على بلاد المشرق الإسلامي والانتصار على العباسيين، فزادوا من الديلم والغز والسودانيين وغيرهم.

أما الدولة الأيوبية فقد اعتمدت على الأكراد والمماليك بكثرة، ففي عهد الملك الصالح نجم الدِّين أيوب ازدادوا عددًا وقدرًا، إذ اعتمد عليهم، فزاد من شراء المماليك من العناصر التركية وأقام لهم الثكنات العسكرية في قلعة الروضة التي أنشأها بجزيرة الروضة عام 638هـ/1240م، لتكون مقرًا لقواته المسلحة، وسموا بالمماليك البحرية، وكان الملك الصالح نجم الدِّين أيوب جهز قلعة الروضة بما يلزم من السلاح وعدد الحرب وأنشأ فيها جامعًا وستين برجًا ولما تم بناؤها انتقل إليها

السلطان الصالح مع أفراد أسرته ومماليكه وحاشيته، وقد رجح البعض في سبب تسميتهم بالمماليك البحرية أن السلطان الصالح نجم الدِّين قد اختار لهم جزيرة الروضة وسط النيل لتكون مستقرًا ومقامًا، فسموا بالبحرية لإحاطة النيل بهم، وهُناك من يقول أن تلك التسمية إنما مصدرها أن أولئك كانوا يجلبون عن طريق البحر صحبة تجار الرقيق ومن ثم سموا بالبحرية.

وفي النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي ظهرت أهمية المماليك وزاد نفوذهم السياسي في الدولة الأيوبية، وذلك عندما تتمكن هؤلاء من خلع العادل الثاني من الحكم وإحلال الصالح نجم الدِّين أيوب في السلطنة، وكان من نتيجة ذلك أن ازداد تقدير الصالح للعناصر المملوكية وفضلهم عليه في توطيد دعائم حكمه، والاحتفاظ بملكه فأكثر من شراء المماليك فزاد نفوذهم في أيامه، ولم يلبث أن ظهر دور المماليك واضحًا عندما اثبتوا كفاءتهم في الجهاد ضد أبر خطرين خارجيين واجها العالم الإسلامي في الشرق الأدنى وهما الصليبيون والتتار.

انتقال السلطنة في مصر إلى المماليك:

أخذت الظروف التي واكبت الحملة الصليبية السابعة تمارس فعالياتها حتى أدت في النهاية إلى زوال دولة بني أيوب، وقيام دولة جديدة على أنقاضها وهي دولة المماليك. ذلك أن مقتل تورانشاه سنة 648هـ/1250م، كان النهاية الطبيعية لدولته، لأسباب تعود في مجملها لسياسته الغاشمة تجاه مماليك أبيه الذين أبلوا بلاءًا حسنا في وقف الخطر الصليبي الذي طرأ على مصر 647–648هـ/1249–1250م، فضلًا عن تنكره لكل الجهود التي بذلتها شجر الدُّرّ، ورغبته في النهوض بمماليكه على حساب المماليك البحرية صنيعة أبيه، في وقت كان المماليك البحرية يخلصون لشجر الدُّرّ باعتبارها من حريم أستاذهم الذي اشتراهم؛ ولكونها أقرب إليهم من العنصر الحر؟ ونتج عن ذلك كله أن ضيق المماليك على السلطان تورانشاه، وقتلوه دونما رغبة منهم في تسليم مقاليد السلطنة إلى أحد أبناء البيت الأيوبي، بل طمعوا فيها؛ وسعوا إلى امتلاكها؛ ومن أجل ذلك أقاموا شجر الدُّرّ في السلطنة؛ وجعلوا أيْبَك التُّرْكماني أحد أمراء المماليك لمنصب الأتابكية، وهكذا بويعت السلطانة الجديدة في صفر 648هـ/مايو1250م.

وكان أن أقدم المماليك على مبايعة شجر الدُّرّ إعلان منهم في الظاهر عن احترامهم لبني أيوب، وإخلاصًا منهم لأستاذهم الصالح نجم الدِّين أيوب وأرملته شجر الدُّرّ، بينما كانوا يضمرون في الخفاء الإعداد لتبوأ مقعد السلطنة.

على أن قيام امرأة في السلطنة لم يلق ترحيبًا من قبل رجال الدِّين، كما أنه قوبل بمعارضة شديدة من الخليفة العباسي المستعصم الذي أرسل إلى أهل مصر يعارضهم قائلًا « إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً»، فضلًا عن الرأي العام في مصر قد انطوى على غضب شديد معلنًا عن ذلك في صور من المظاهرات والاضطرابات.

أما شجر الدُّرّ نفسها فقد شعرت بالحرج الشديد معبرة عن ذلك بعدم توقيعها باسمها على المناشير، مكتفية بذكر«والدة خليل»، إشارة إلى خليل الذي أنجبته، وتوفي في حياة أبيه الملك الصالح أيوب، وكان أن حرصت على أن تنسب نفسها إلى الخليفة العباسي بنقش اسمها على السكة بصيغة «المستعصمية الصالحية، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل»؛ ولم يكن ذلك كله سوى رغبة منها في أن تضفي على حكمها صبغة شرعية استنادًا إلى صلتها بالخليفة العباسي والبيت الأيوبي في آن واحد.

وكان على شجر الدُّرّ أن تسلك سياسة هادفة تجاه أهم وأخطر مشكلة واجهت سلطنتها، ألا وهي التصرف بحكمة مع لويس التاسع وعساكره الباقية في مصر، وتُشير المصادر إلى أن ما اتخذته من إجراءات يكشف عن ذكائها وقدرتها في البحث عن حلول تكفل سلامة البلاد والعباد، من ذلك أنها ندبت بعد أن بايعها الأمراء والأجناد الأمير حسام الدِّين محمد بن أبي علي لمفاوضة الملك لويس التاسع في تسليم دمياط، وكان أن أسفرت تلك المفاوضة على اتفاق قضى بإطلاق سراح لويس التاسع والسماح له بالذهاب إلى بلاده مقابل نصف فداء يؤديه عن نفسه مقدمًا وقدره أربعمائة دينار شريطة أن يؤدي النصف الآخر بعد وصوله عَكَّا وتسليم دمياط.

سرعان ما أبدى لويس التاسع رغبته في الرحيل والجلاء عن دمياط فراسل ما بها من الصليبيين يطالبهم بتسليم المدينة، فوافقوه بعد أن أبوا، وبادرت زوجته مرجريت التي كانت في دمياط بجمع نصف الفدية ورحل الصليبيون عن دمياط؛ ليدخلها العلم الإسلامي في يوم الجمعة 3 صفر648هـ/1250م. وهكذا أفرج عن الملك لويس التاسع وأخيه وزوجته، ومن بقى من أصحابه،

وأسراهم بمصر والقاهرة ممن تم أسره خلال أحداث الحملة السابقة، وكذا أقرانهم من أسرى سابقين كانوا قد اقتيدوا إلى السجون على عهد سلاطين بني أيوب العادل والكامل والصالح وعدتهم اثنا عشر ألف أسير، حيث ساروا جميعا إلى البر الغربي لدمياط ثم إلى عَكَّا (50).

ونجد أن جلاء الفرنجة عن دمياط وخروجهم على هذا النحو الهادئ السريع إنما يعود إلى سياسة شجر الدُّرّ التي انطوت على حكمة وذكاء، ذلك إنها سفهت آراء المعارضين ممن خالفوها في شأن السماح لملك الفرنسي بالعودة إلى بلاده، وبالذات بعد أن أصبحت دمياط في أيدي المسلمين، وإذ بها تقر بضرورة احترام العهد الذي أخذوه على أنفسهم، وانضم إليها بعض قادة الجيش، وانتهى الأمر بإقناع المخالفين؛ وخرج الفرنج من مصر؛ وبخروجهم انتهت الحملة الصليبية بفشل ذريع.

على أن بني أيوب في الشام لم يعجبهم قيام شجر الدُّرّ بالسلطنة في مصر، وأبدوا استياءهم؛ وكان أن أرسلت شجر الدُّرّ إلى دمشق الخطيب أصيل الدِّين محمد بن إبراهيم بن عمر لأخذ البيعة من أمرائها ولكن الأمير جمال الدِّين يغمور نائب السلطنة، والأمراء القيمرية أغلظوا له القول وغالطوه، واستعانوا بالملك النَّاصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي حفيد صلاح الدِّين وصاحب حلب وحثوه على المسير إلى دمشق؛ والوقوف ضد شجر الدُّرّ والمماليك في مصر، ويشير المقريزي(51) بأن الملك الأيوبي النَّاصر يوسف انتهز الفرصة، وبادر الخروج من حلب على رأس جيش قاصدًا دمشق حيث وصل إليها في ربيع الآخر 648هـ/1250م، ودخلها بعد أن فتح له أبوابها الأمراء القيمرية بإشارة من زعيمهم ناصر الدِّين أبو المعالي حسين بن عزيز أبو الفوارس القيمري الذي أدى المهمة– فيما نرى– بدافع كرديته في محاولة لتمهيد السبيل أمام الملك الأيوبي حفاظًا على بني جنسه من بني أيوب، وللحيلولة دون نجاح المماليك فيما سعوا إليه من مقاصد بدافع طموحهم على حساب الأيوبيين؛ الأمر الذي يَسّر على الملك النَّاصر يوسف صاحب حلب دخول دمشق دون عناء، حيث خلع على القيمرية وزعيمهم، وقبض على الأمراء المماليك الصالحية، وأودعهم السجن، واستحوذ على قلعة دمشق ووزع مغانمها على الملوك والأمراء بأموال قدرها مائة

(50) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول – القسم الثاني، ص462-463.

(51) السلوك، ج1ق2، ص367.

ألف دينار وأربعمائة ألف درهم. وفي مقابل ذلك قُبض على القيمرية في مصر، وكل من اتهم بالميل على النَّاصر يوسف والحلبيين، واقترن ذلك كله بأن جدد المماليك في مصر الإيمان لشجر الدُّرّ، وأيدوا قيام الأتابك عز الدِّين أيْبَك التُّرْكماني في قيادة الجيش، ومما لاشك فيه فإن المماليك الصالحية جددوا بيعتهم لشجر الدُّرّ لكونها أقرب إليهم من حيث الأصل والنشأة، إلى حد جعل المقريزي يحسبها أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك، وسرعان ما تطورت الأحداث في مصر بصورة أدت إلى تولي المماليك سلطنة مصر.

سلطنة أيْبَك التُّرْكماني وأهم أحداثها:

أدرك المماليك في مصر خطورة ما أقدم عليه بنو أيوب في الشام على دولتهم الناشئة ومستقبلهم السياسي في وقت استرجعوا فيه معارضة الخليفة العباسي المستعصم وعلماء الدِّين إزاء إسنادهم السلطنة لامرأة، ولم يروا غضاضة من نقل السلطنة إلى عز الدِّين أيْبَك بعد زواجه من شجر الدر، وتم لهم ما أرادوا إذ تولى هذا الأخير السلطنة بعد أن تنازلت عنها شجر الدر، وتلقب بالمعز و(ركب بالسناجق السلطانية والغاشية بين يديه في آخر ربيع الآخر(648هـ/1205م) وبطلت السكة والخطبة باسم شجر الدر)؛ وأشار المقريزي(52) في هذا السبيل بأن شجر الدر(خلعت نفسها من مملكة مصر، ونزلت عن الملك، فكانت مدة دولتها ثمانين يومًا).

وكان طبيعيًا أن يلجأ المعز أيْبَك التُّرْكماني إلى مواجهة تهديدات بني أيوب، فأخذ يبحث عن صيغة شرعية تدعم حكمه في السلطنة، ومن أجل ذلك وافق أقرانه المماليك على استحضار أحد أبناء بني أيوب لم يتجاوز عمره ست سنوات واسمه موسى بن يوسف بن يوسف(الأشرف مظفر الدِّين موسى بن النَّاصر يوسف بن المسعود أَقسِيس بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن نجم الدِّين أيوب)، وأقامه في السلطنة جاعلًا من نفسه هو أتابكا عليه متظاهرًا بأنه شريك له في الحكم؛ وجعل المراسيم والخطبة باسميهما؛ وركب الاثنان الأشرف والمعز(بالسناجق السلطانية وشقا القاهرة ...).

(52) السلوك، ج1ق2، ص368.

على أن الأيوبيين بزعامة النَّاصر يوسف صاحب حلب لم تخف عليهم ما كان يضمره المماليك من نوايا غير حسنه تجاههم، وأدركوا تمامًا أن مشاركة الأمير الأيوبي الطفل لا تخرج عن كونها لعبة سياسية أقدم عليها المماليك بهدف التهدئة بينما أمور مصر كلها بيد المعز أيْبَك؛ وما كان للأشرف ليس إلا الاسم، الأمر الذي دفع بهم إلى المسير خلف زعامة النَّاصر يوسف الأيوبي قاصدين مصر لمحاربة المماليك.

شارك في الحملة المتجهة إلى مصر عدد من ملوك وأمراء البيت الأيوبي في الشام، ووصلت الحملة إلى نواحي غزة منتصف رمضان 648هـ/1250م. وكان أن حاول الملك النَّاصر يوسف الأيوبي الاستعانة بالملك الصليبي لويس التاسع الذي كان آنذاك بالشام بعد جلائه عن دمياط– ظنًا من أن نجاح حملته تستوجب انضمامه إليه، وعندئذ وعد بتسليمه بيت المقدس إذا ما عاونه في غزو مصر، لكن السلطان أيْبَك علم بأنباء هذا الاتصال، وهدد الملك الفرنسي إن قام بأي عمل عدائي ضده، وفي الوقت نفسه أبدى له استعداده بتعديل معاهدة دمياط والتنازل عن نصف الفدية المتفق عليها حالة إذا ما انضم إليه ضد النَّاصر يوسف؛ غير أن الملك لويس التاسع آثر الوقوف على الحياد مراقبًا الموقف عن كثب أملًا في إتخاذ الخطوة المناسبة بعدما ينتهي الموقف بين الطرفيين الإسلاميين من نتائج.

ومهما يكن من أمر فقد التقى الطرفان الأيوبي والمماليكي في معركة فاصلة ذي القعدة 648هـ/1251م، عند بلدة العباسة بين بلبيس والصالحية دارت فيها الدائرة على الملك النَّاصر الأيوبي بعد أن خذله مماليكه العزيزية وانضمامهم إلى المماليك البحرية، وقفل الملك الأيوبي راجعًا في خاصته ومن معه إلى الشام بعد أن فقد عددًا كبيرًا من القتلى؛ ومع ذلك لم يتركه السلطان المعز أيْبَك وشأنه، بل قرر غزو الشام والخلاص من المقاومة الأيوبية بها، ولتحقيق ذلك استعان بالملك الصليبي لويس التاسع واعد إياه إن هو حالفه أعطاه بيت المقدس بعد الاستيلاء عليها، وعندئذ وجد ملك الصليبيين أنه من الأصلح له الانضمام للمماليك على حساب الأيوبيين بعد أن رجحت كفتهم، وانتهى الأمر بأن اتفق الطرفان المماليكي والصليبي على القيام بحملة مشتركة لطرد النَّاصر يوسف من الشام؛ ولتنفيذ هذه الخطة استولى لويس التاسع على مدينة يافا دون مقاومة؛ وكان من المتفق عليه أن يحتل أيْبَك غزة، لكن النَّاصر يوسف سبقه إليها واستولى عليها للحيلولة دون اتصاله بالصليبيين؛ وسرعان ما تدخل الخليفة العباسي بين أيْبَك والنَّاصر يوسف؛ وانتهى الأمر بالصلح

بينهما بوساطة نجم الدِّين البادرائي مبعوث الخليفة في 651هـ/1253م، شريطة أن تصير الجهات بين مصر والأردن تابعة للمماليك، وتشمل–أيضًا– غزة والقدس ونابلس، والساحل كله، بينما يصير ما وراء الأردن من توابع النَّاصر يوسف الأيوبي، وأن يطلق المعز أيْبَك جميع من أسر من جند الملك النَّاصر، وأعقب المعز ذلك كله بأن أطلق سراح المعظم تورانشاه بن السلطان صلاح الدِّين يوسف بن أيوب، وأخاه نصر الدِّين، وأشهدهم قبل تركهم لمصر العهد المكتوب في شأن الصلح مع النَّاصر يوسف.

سرعان ما ازداد نفوذ المماليك البحرية بتأثير ما حققوه من انتصارات على الصليبيين في مصر والأيوبيين في الشام، وكان أيْبَك يتوجس خيفة من هذه الطائفة لعلمه بقوتها وخطرها، ومن ثم أخذ يعمل على تقوية نفسه، فأنشأ فرقة من المماليك عرفوا بالمعزية نسبة إلى لقبه(الملك المعز)، كما عين مملوكه قطز المعزي نائبًا للسلطنة بمصر. ثم لم يلبث أن أخرج المماليك البحرية من ثكناتهم بجزيرة الروضة، وعزل الملك الأيوبي الطفل الأشرف موسى شريكه الأساسي في الحكم، وانفرد بالسلطنة دون منازع.

غير أن ذلك لم يقلل من خطر أقطاي(53) وزملائه البحرية، خاصة أن أقطاي قد ازداد نفوذه ووصل إلى قمة المجد بعد تغلبه على ثورة العرب، وأصبح لا يظهر في مكان إلا وحوله حرس عظيم من الفرسان المسلحين كأنه ملك متوج . وكانت نفسه ترى أن ملك مصر لا شيء عنده، وكان كثيرًا ما يذكر الملك المعز في مجلسه ويستنقصه ولا يسميه إلا أيبكا، وقد بلغ ذلك المعز فكان يغضي عنه لكثرة خشداشيته البحرية، وبعبارة أخذ أقطاي يرنو علانية نحو السلطنة، كما أخذ خشداشيته(زملائه) يسعون في تحقيق بغيته، فلبوه فيما بينهم بالملك الجواد وعملوا على تزويجه من إحدى أميرات البيت الأيوبي ابنه الملك المظفر تقي الدِّين محمود ملك حماه، بل تآمروا على أيْبَك ليخلو الجو لأقطاي. ثم حدث أن طلب من أيْبك أن يأذن له في الإقامة مع عروسه بقلعة الجبل لكونها من بنات الملوك، فلم يبق بعد ذلك لدى أيْبَك أي شك في نوايا أقطاي، فصمم على قتله. وفي يوم الاربعاء 3 شعبان سنة 652هـ/1254م، طلب أيبك من أقطاي الحضور إلأى قلعة الجبل لاستشارته في أمر من الأمور بعد أن اتفق مع مماليكه المعزية على اغتياله. وركب أقطاي إلى القلعة في عدد من مماليكه فما كاد يدخل من باب القلعة المؤدي إلى قاعة العواميد أو القاعة الكبرى،

(53) هو الأمير فارس الدِّين أقْطاي بن عبدالله الجَمَدَار الصالحي النجمي التركي.

حتى أغلق خلفه ومنع مماليكه من اللحاق به، ثم انقض عليه المتآمرون ومنهم الأمير قطز المعزي وقتلوه بسيوفهم، وأشيع خبر مقتله في القاهرة، فهرع لإنقاذه سبعمائة من خشداشيته ومنهم الأمير بيبرس البندقداري والأمير قلاوون الألفي، وفي ظنهم أنه لم يقتل بعد وإنما قبض عليه، فلم يشعروا إلا ورأس أقطاي قد رمي بها إليهم من سور القلعة. ولم يجد المماليك البحرية إزاء ذك سبيلًا سوى الفرار إلى الشام حيث ساروا أتباعًا لبني أيوب مثل الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق، والمغيث عمر ملك الكَرَك، كما التجأ مائة وثلاثين منهم إلى سلاجقة الروم بآسيا الصغرى، حيث السلطان علاء الدِّين كيقباذ.

كان لمقتل أقطاي آثاره على المماليك فقد انقسموا إلى طائفتين تتنازع كل منهما الأخرى وهما البحرية والمعزية مما عرض قيام دولة المماليك لأشد الأخطار؛ إذ أخذ المماليك الهاربون يحرضون ملوك البيت الأيوبي على غزو مصر، ولم يخف ذلك على أيْبَك، فعمد أولًا إلى مصادرة أموال المماليك البحرية، كما قبض على من بقي منهم في مصر، وشتت شمل من والاهم من طوائف المماليك الأخرى في مصر.

كما كتب أيْبَك إلى الملوك الذين لجأ إليهم البحرية، وحذرهم منهم ومن غدرهم وشرهم، وقد أغرى أمراء البحرية الذين فروا إلى الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب، وأغروه بفتح مصر، مما أدى إلى تأزم الموقف بين المعز أيبك والناصر يوسف، ولكم الأمر انتهى بالصلح بفضل واسطة الخليفة المستعصم العباسي الذي أرسل رسوله نجم الدِّين البادرائي في سنة 654هـ/1256م، حيث وقع الصلح على أن يكون لأيْبك الديار المصرية وساحل الشام، وعلى ألا ياوي الملك الناصر عنده أحدًا من البحرية، فاضطر المماليك البحرية إلى الرحيل عندما علموا بذلك.

وعلى ما يبدو أن أيبك أخذ يشعر بما بين زوجته شجر الدر والمماليك البحرية بالكَرَك من مراسلات واتفاقات، فعزم على الزواج من غيرها، وأرسل سنة 654هـ/1256م، إلى بدر الدِّين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب إليه منه الزواج من ابنته وعقد تحالفًا بينهما. وكيفما كان الأمر فقد كانت هذه المسألة بداية الخاتمة لعهد أيْبَك ، ذلك أنه لما علمت شجر الدُّر بما يدبره أخذت هي تتزعم حركة المعارضة الداخلية والخارجية لسلطنته والقضاء عليه.

استطاعت إلى زوجته شجر الدُّر تدبير مؤامرة أدت إلى الفتك بالمعز أيْبَك، فقد أرسلت أحد المماليك بهدية إلى الناصر يوسف، وأعلمته أنها قد عزمت على قتل المعز، والتزوج به وتمليكه مصر، فخشى الناصر أن يكون في الأمر خدعة، فلم يجبها بشيء. وعندما علم بدر الدِّين لؤلؤ بتلك الأخبار أرسل للمعز يحذره منها، فأقام بمناظر اللوق، فأرسلت إليه وتلطفت في دعوته، وقد أعدت خمسه ليقتلوه منهم: محسن الجَوْجَرِي، وخادم يعرف بنصر العزيزي، ومملوك يسمى سنجر، فقتلوه في الحمام في ربيع الأول 655هـ/1257م.

لكن مماليكه طالبوا بدمه، فقامت جواري أم المنصور علي بن المعز أيبك بضربها بالقباقيب

حتى ماتت، وألقوها من سور القلعة ثم دفنت بعد أيام، وخلت الساحة السياسية في مصر من السلطان المعز أيْبَك وشجر الدر في آن واحد سنة 655هـ/1257م.

الفصل الثاني

السلطان قطز ودرء الخطر التتري

تولى المنصور علي بن أيْبَك سلطنة المماليك في مصر خلفاً لأبيه أيْبَك، وصار سيف الدِّين قطز أتابكًا ومدبرًا لدولته؛ ولم يبلغ السلطان من العمر سوى خمسة عشر عامًا، بينما كانت أحوال السلطنة في مسيس الحاجة إلى رجل راشد يملك من المقومات ما يعينه على ضبط أمور البلاد والعباد، وبالذات بعد أن وصلت الأخبار في صفر656هـ/1258م، بأن التتار استولوا على بغداد؛ وجدد الأيوبيون في الشام عداءهم للمماليك؛ وكان أن راسل زعيمهم النَّاصر يوسف الأيوبي هولاكو طالبًا مساعدته في الاستيلاء على مصر، الأمر الذي جعل سيف الدِّين قطز يعد عدته للخلاص من بني أيوب والتتار؛ وبدأ ذلك بأن قبض على السلطان الصغير المنصور علي بن أيْبَك بعد أن استمر سلطاناً حوالي ثلاثة أعوام، موضحا للأمراء بأن ما أقدم عليه لا يخرج عن كونه ضربًا من الحكمة وأعد العدة لوقف الخطرين التتري والأيوبي، ومن أجل ذلك تولي السلطنة وتفرغ تماماً لوضع سياسة محكمة تستهدف الخلاص–أولًا– من التتار الوثنيين أعداء الإسلام، فقد هاله ما وصله من أخبار تكشف عن سياستهم الغوغائية وكراهيتهم للإسلام وحضارته، فقتلوا الخليفة العباسي المستعصم وأحرقوا المساجد، وحطموا كافة مظاهر الحضارة في عاصمة الخلافة، وأخذوا يهددون الشام ومصر.

سرعان ما هدد التتار الشام، ونجحوا في دخول حلب حيث ارتكبوا أفعالهم الإرهابية، وأوقعوا الهلع في قلوب الناس، وهناك أمراء كثيرين لم ير البعض منهم أي غضاضة في ممالاة التتار ومسالمتهم، لكن البحرية بقيادة ركن الدِّين بَيْبَرْس البُنْدُقْدَارِي(54) سفهوا آراءهم، وساروا إلى غزة حيث راسلوا قطز في رأب الجبهة الداخلية ضد التتار؛ واستجاب الأخير لهذه الدعوة، ودخل البحرية القاهرة، وقوى قطز بتوحيد جبهة المماليك.

وكان أن والى التتار زحفهم على دمشق وبعلبك وبانياس، وهدد هولاكو سلطان المماليك في مصر، لكن السلطان قطز أعد للمواجهة عدتها، وبدأ ذلك بأن أمر بقتل رسل هولاكو، واستنفر الأمراء للجهاد، وصاح فيمن تردد منهم لمحاربة التتار قائلاً(يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون

(54) البُنْدُقْدَارِي: نسبة إلى البندقدار، وهو لفظ فارسي مركب – معناه حامل جراوة- أي كيس البندق، خلف الأمير أو السلطان، وقد سمي بَيْبَرْس باسم البندقداري، لأنه كان في أول أمره مملوكًا للأمير أيْدَكين البندقدار، ثم انتقل إلى الملك الصالح نجم الدِّين أيوب، وصار من المماليك البحرية. (القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج5، ص458؛ المقريزي: السلوك، ج1ق2، ص350 حاشية(2)؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص94حاشية(1)).

أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون أنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين)(55).

سرعان ما سير قطز مجموعة من البحرية بقيادة بَيْبَرْس للوقوف على الحملة التترية التي اتجهت بأمر من كَتْبُغا نائب هولاكو إلى غزة، حيث تمركزت عساكرهم، وعند وصول بَيْبَرْس إليها غادرها التتار، وما لبث قطز أن اتجه من مصر ببقية الجيش في اتجاه بحيرة طبرية، محملا الصليبيين عواقب وخيمة إن هم ساندوا التتار، لكن كَتْبُغا أصر على مقاتلة قطز؛ فحرك جيشه صوب بيسان، وبالقرب منها دارت مقتلة عظيمة في عين جالوت 25 رمضان 658هـ/1260م، كان النصر فيها للمسلمين؛ ولقى القائد كَتْبُغا مصرعه، وكثير من جنوده، وأعقب المسلمون ذلك بأن أوقعوا غالبية جيش العدو بين القتل والأسر، ويذكر ابن الوردي بأن التتار انهزموا(هزيمة قبيحة، وأخذتهم سيوف المسلمين، وقتل مقدمهم كَتْبُغا وأوسر ابنه، وتعلق من سلم منهم برءوس الجبال، وتبعهم المسلمون فأفنوهم، وهرب من سلم إلى الشرق).

ولا يخفى علينا الآثار الإيجابية التي ترتبت على انتصار المسلمين في عين جالوت، إذ أوقف ذلك الانتصار كل طموحات التتار في تكوين إمبراطورية إيلخانية تضم الشام ومصر والعراق وإيران؛ وأنقذ مصر والشام من ذلك الخطر الذي لولا الوقفة المماليكة الجادة في درئه لوقعت كثير من مقدسات المسلمين تحت وطأة المزاعم الوثنية الجنكيزية التي سادت مساحات شاسعة من أراضي الشرق.

ومما لاشك فيه فإن الانتصار على التتار في عين جالوت قد أوقف دولة الإيلخانيين عند نهر الفرات؛ واتخذت كل محاولات التتار من بعد ذلك صورًا من الغارات المتقطعة على بلاد الشام دون أن يكون لها صدى عميق عند سلطنة المماليك.

ولا ننسى ما انطوت عليه هذه المعركة من أحداث تؤكد معنى الوحدة بين العناصر المماليكية؛ وما أظهره التعاون بين قطز وبَيْبَرْس من دور هائل تبلور بجلاء في قيام قطز باسترداد دمشق، ونجاح بَيْبَرْس في مطاردة التتار حتى حلب.

(55) المقريزي: السلوك، ج1ق2، ص429.

وتأكدت آثار عين جالوت من خلال تلك الفترة القصيرة التي قضاها قطز في بلاد الشام؛ حيث فرض نفوذه على هذه البلاد وأكد سيطرة المماليك عليها، واعترف أمراء بني أيوب بسلطنة المماليك في مصر، وأعلنوا تبعيتهم لها؛ وتعهدوا بالدعاء لسلطانهم.

كان أن وعد المظفر سيف الدِّين قطز حليفه بَيْبَرْس بولاية حلب، ولأسباب غير معلومة عند الكتاب المعاصرين تنكر قطز لوعوده؛ الأمر الذي أوجد الوحشة بين الرجلين، وبينما كان موكب المنتصرين عائدًا إلى القاهرة خلا بَيْبَرْس بالسلطان وتظاهر بتقبيل يده، حتى قبض عليه وضربه بالسيف، وأجهز عليه أصحابه بالنشاب في17ذي القعدة 658هـ/1260م.

انتهى الأمر بأن بايع نائب السلطنة في مصر الأمير بَيْبَرْس بالسلطنة وتبعه بقية الأمراء وذلك قرب الصالحية، وهكذا دخل بَيْبَرْس قلعة الجبل في صحبة الأمراء حيث أعلن عن بدء عهده بالسلطنة في مصر.

هكذا اغتيل السلطان قطز صاحب الفضل في بلورة حركة جهادية كبرى تاق إليها المسلمون ضد الخطر المغولي؛ وكان اغتياله علامة على فساد العقلية المماليكية، إذ من الصعب علينا الأخذ بكلام المؤرخين الذين ارتكنوا إلى تنكر قطز لوعوده تجاه بَيْبَرْس كان سببًا في اغتياله، ولئن اعتبرنا ذلك سببًا مباشرًا لقتله فإن هناك ما يعلو عليه؛ ذلك أن العداء بين المعزية أتباع المعز أَيْبَك التُّرْكماني بزعامة قطز، والبحرية بزعامة بَيْبَرْس ظل يمارس فعالياته منذ أن تفجر بسبب مقتل أقطاي على يد أَيْبَك؛ ولم يخفف من حدة هذا العداء سوى عامل الجهاد الذي بتأثيره كانت الوحدة بين الفريقين في وقت بات فيه كلاهما في أمس الحاجة إلى الآخر، فالبحرية تعذر عليهم المقام بالشام؛ وتناصروا على صيانة الدِّين فانحازوا إلى قطز المعزي، على حين كان الأخير في مسيس الحاجة إلى من يمد له يد العون لوقف الخطر التتري، وما لبث أن انتهى تأثير عامل الجهاد بعد عين جالوت؛ ليستسلم الفريقان للفتنة، ووقع ما وقع لتشهد دولة المماليك عهدًا جديدًا ساده نفوذ البحرية الذين أمرهم بَيْبَرْس بالحضور إلى مصر بعد أن كانوا منفيين في البلاد.

ولا مندوحه في نظرنا من استبصار العرف السائد عند المماليك، وهو عرف جعل مبدأ البقاء للأقوى، وإحلال القاتل محل القتيل أمرًا لا مفر من الارتكان إليه في النظام المماليكي، بدليل أن

الأمير أقطاي المستعرب فاجأ الأمراء بعد عودتهم إلى الصالحية وسأل«من قتله منكم؟ فقال الأمير بَيْبَرْس: أنا قتلته، فقال الأمير أقطاي: يا خوند اجلس في مرتبة السلطنة مكانه».

والأمر الذي لا مراء فيه ثبات مبدأ البقاء للأقوى الذي أسهم بدرجة كبيرة في تشكيل العقلية المماليكية وبالتالي بلورة النظام السياسي عند المماليك يعود من حيث الظهور إلى أسباب تتصل باستقدام ذلك العنصر، وتنشئته في مصر؛ وافتقاره إلى الوحدة الاجتماعية والعنصرية والسياسية مما يشير إلى النظام المماليكي كان يحمل بين طياته بذور ضعفه؛ وفي ضوء ذلك كله يمكن تفسير كثير من الاتجاهات السياسية والحضارية التي أقبل كل سلطان من سلاطين دولة المماليك في مصر.

ومهما يكن من أمر فإن الجهاد قد شكل العامل الوحيد الذي من شأنه أن أسهم في توحيد العناصر المماليكة؛ ودعا إلى نبذ الفرقة وترسيخ مبدأ الوحدة والاستقرار بينهما، ولما غاب هذا العامل حدث التغيير الذي تم بإرادة من يملك القوة والقدرة عليه؛ وعلى نحو ما مر بنا فقد تمكن بَيْبَرْس من الوصول إلى السلطنة بتأثير ما كان يملكه من قوة وعصبية ودهاء دونما اعتبار لكل ما قدمه قطز من فضل وشجاعة في دحر القوى الإيلخانية.

الفصل الثالث

دولة المماليك في عهد دولة الظاهر بَيْبَرْس

يحمد للمماليك أنهم حافظوا على الميراث الحضاري الذي ورثوه عن أسيادهم الأيوبيين؛ وكان أن أقام السلطان الظاهر بَيْبَرْس دولة البحرية على أسس هي نفسها التي شيد عليها الأيوبيون دولتهم؛ فبدأ بَيْبَرْس في مستهل سلطنته يتقرب من الخاصة والعامة فخفف عن الأهالي عبئ الضرائب، وأزاح عنهم عبئًا ثقيلاً بإلغائه الأموال التي كان قطز قد استحثها بدعوى الجهاد ضد التتار، كما أطلق من في السجون، وسمح لهم بحرية التنقل.

ويتجلى لنا حرص بَيْبَرْس على كسب ولاء المصريين من إقدامه على تغيير لقبه الأول «القاهر» ملبيًا رغبة وزيره(زين الدِّين يعقوب بن الزبير) الذي أشار عليه بأن هذا اللقب ما تلقب به أحد فأفلح؛ وحتى لا يظن بأن سوف يسلك سياسة غاشمة قاهرة تلقب بالملك الظاهر بدلا من القاهر.

على أن السلطان الملك الظاهر بَيْبَرْس اضطر إلى إتباع سياسة تجاه معارضيه ممن لم يعترفوا بسلطنته، وعلى سبيل المثال دعا إلى وقف تمرد الثائر سَنْجَر الحلبي الذي استقل بدمشق بعد مقتل قطز، وأعلن نفسه سلطانا وتلقب بالملك المجاهد، فأرسل إليه أحد أمرائه الذي نجح في القبض عليه وإحضاره إلى القاهرة مقرنًا في الأصفاد(في 16صفر 659هـ/يناير1261م)، حيث اعتقل في قلعة الجبل.

ومن ذلك أن السلطان الظاهر بَيْبَرْس أرسل حملة قضت على جيش البرلي(شمس الدِّين أقُوش البُرُنْلي)، الذي اعتزم السير إلى مصر لغزوها بعد أن استولى على نيابة حلب. كما أظهر عنادًا في مواجهة المغيث عمر الأيوبي صاحب الكرك في جُمادى الأولى سنة 661هـ، فأعتقله بالقلعة، حيث ظل بها إلى أن قتل.ومن ذلك – أيضًا– أن السلطان الظاهر بَيْبَرْس قضى على ثورة اندلعت في القاهرة استهدف أصحابها إحياء مجد الفاطميين القديم.

وكان طبيعياً أن يدعم الظاهر بَيْبَرْس حكمه مستندًا إلى أساس قوي متين يلجأ إليه للخلاص من معارضيه بعد أن خرج عليه في مستهل حكمه عدد لا بأس به منهم؛ ولم يكن ذلك الأساس سوى إحياء الخلافة العباسية التي تهاوت، ولم يعد لها ذكر بعد أن أسقطها هولاكو في صفر 656هـ/1258م.

ولم تكن رغبة عند بَيْبَرْس في إحياء الخلافة العباسية بتأثير حاجته إلى أساس يواجه به معارضيه فحسب، بل كانت رغبته في أن يجعل من دولته الناشئة دولة شرعية أشد وأعظم؛ ومن شأنه أن ينال ذلك إذا ما أحيى الخلافة التي تعترف بسلطانه، فضلاً عن ما سوف يعود عليه من فائدة كبرى إذا ما كسب تأييد العالم الإسلامي باعتباره السلطان الظاهر الحامي للخلافة؛ ومما لاشك فيه أن ذلك كله يعينه على الخروج سليما مما روجه المعارضون الذين أشاعوا بأن المماليك اغتصبوا الحكم من سادتهم بني أيوب؛ كما يسفه كل الآراء المروجة لأصلهم بوصفهم عنصر قد مسه الرق.

ومهما يكن من أمر فإن السلطان الظاهر بَيْبَرْس كان في أمس الحاجة إلى تثبيت أقدامه؛ وتوطيد نفوذه بتلك المظاهر الدِّينية التي تجلت في رغبته لإحياء الخلافة العباسية؛ وكان هو أسرع الحكام المسلمين في مصر إلى تنفيذ هذه الفكرة؛ وجعل مقر سلطنته قبلة بقية حكام العالم الإسلامي.

شرع السلطان بَيْبَرْس في اتخاذ الإجراءات التي تكفل له إخراج مشروع الإحياء إلى حيز التنفيذ فبادر في رجب 659هـ إلى طلب أحد أبناء البيت العباسي وهو أبو العباس أحمد الذي وصل إلى دمشق؛ واستدعاه إلى مصر متخذًا كافة السبل من أجل سلامته؛ وبمجرد وصوله صحبة جماعة من العرب عقد السلطان الظاهر مجلسًا حضره الشيخ عز الدِّين بن عبد السلام والقاضي تاج الدِّين بن عبد الوهاب المعروف بابن بنت الأعز، وجماعة من العرب حيث شهد الجميع بصحة نسبه وأنه ابن الظاهر محمد بن الإمام النَّاصر العباسي، وأثبت القاضي صحة الشهادة؛ وما لبث أن بايع السلطان الظاهر وتبعه الحاضرون الخليفة الجديد الذي لقب بالمستنصر "أبي القايم أحمد بن الظاهر بالله محمد"؛ وأصبح السلطان المملوكي منذ ذلك الوقت يتولى السلطنة بتفويض من الخلافة صاحبة السلطان الشرعي في العالم الإسلامي.

وكان أن أظهر السلطان بَيْبَرْس فرحته بالخليفة الجديد وما قيل أنه عمل له(آلات الخلافة حتى الدهليز واستخدم له عسكرًا) وأنفق على تجهيز مقره ألف ألف دينار(مليون دينار). وعلى الرغم من كل هذه الاحتياطات التي اتخذها السلطان الظاهر بَيْبَرْس لضمان سلامة الخليفة الجديد إلا أن بعض العامة تشككوا في صحة نسبه؛ وتجلى هذا الأمر فيما أشار إليه بعض المؤرخين بهذا الخصوص، من ذلك ما أورده ابن الوردي في حوادث سنة 659هـ بقوله« قدم جماعة من العرب

ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله....»، ويظهر أن هذا الشك تسرب إلى العامة من الناس بالقاهرة وغريهم بدليل(تلقيبهم للمستنصر بلقب الزراتيني أو الزرابيني)؛ وهو لقب ذكره أبو الفدا بوصفه مستعملاً في مصر للدلالة على الشخص الأسود.

على أن إحياء الخلافة كان هو الهدف الأسمى في نظر السلطان بَيْبَرْس لصبغ حكمه بالمشروعية المطلوبة لدى الرأي العام في العالم الإسلامي؛ لذلك امتدت رغبة بَيْبَرْس إلى ما هو أبعد من إحيائها في القاهرة، فلم يكد يحصل على تفويض من الخليفة الجديد بالسلطنة حتى شرع في تجهيزه بالمعدات والجند والمال لاسترداد بغداد 659هـ/1261م، راغبًا في استنفار جند الشام لمشاركة جند مصر من أجل العودة إلى حاضرة الخلافة التي مر على سقوطها ثلاث سنين ونصف، غير أن أحد أمراء الموصل زيّن لبَيْبَرْس أثناء وجودهما بدمشق أمر الخلاص من الخليفة، إذ رأى في عودته إلى بغداد فرصة لمنازعة السلطان وإخراجه من مصر، وهكذا لم يكمل بَيْبَرْس بفعل هذا الوسواس جهوده لاستكمال الجيش، وترك الخليفة وحده يذهب لمحاربة التتار في بضع مئات من الرجال مما أدى إلى مقتله وغالبية جنده.

ومهما يكن من أمر فإن رغبة بَيْبَرْس في عملية الإحياء باتت في نظره أساسا يقيم عليه دولته؛ وفي هذا الإطار استدعى أميرًا عباسيًا آخر يحل محل الخليفة المستنصر وهو أبو العباس أحمد، الذي شارك هذا الأول في المحاولة التي بذلها لاسترداد بغداد، وأفلت من قبضة التتار.

وفي المحرم سنة661هـ، عقد السلطان بَيْبَرْس مجلسًا عامًا أثبت فيه نسب الأمير العباسي، وبايعه وتبعه القضاة والأمراء، ثم لقبه بالحاكم بأمر الله، وأبقاه بالقاهرة دون أن يبذل محاولة لنقله إلى بغداد؛ متخذًا كل الاحتياطات لحماية نفسه إذا ما أقدم على منافسته، وبات أمر الخلافة في مصر منذ ذلك الوقت لا يخرج عن كونه ممثلاً لسلطة روحية تفوض أمر البلاد إلى السلطان، ويدعى لها في الخطبة، ويصف المقريزي الخليفة العباسي بعد الإحياء بأنه ليس له فيها(أمر ولا نهي، وإنما حظه أن يقال أمير المؤمنين).

وكان طبيعيًا أن يترتب على نجاح الظاهر بَيْبَرْس في إحياء الخلافة العباسية مظاهر إسلامية أخرى لا يمكن لمسيرة الدولة أن تنهض بدونها، ولعل من أهم هذه المظاهر، التوسع في النشاط الدِّيني الذي مضى طيلة عصر المماليك يؤدي دوره كاملاً بعد أن غدت مصر قاعدة الخلافة

العباسية، وأول ما يسترعى انتباهنا في هذا السبيل سياسة بَيْبَرْس في القضاء على مظاهر التشيع؛ وتحريمه لأي مذهب سوى المذاهب السنية الأربعة؛ وصار القبول في وظائف الدولة لا يتم لأحد إلا إذا كان من أتباع هذه المذاهب؛ ومن أجل ذلك كله ربط فكرة النهوض بالمذاهب السنية بسياسة الدولة، ولئن كان سلاطين بني أيوب أصحاب فضل في حماية المذهب السني، فإن المماليك منذ عهد السلطان الظاهر بَيْبَرْس يحمد لهم التوسع الكبير في إنشاء المدارس وتثبيت أركانها عن طريق الأوقاف التي بلغت في ذلك العصر شأنا عظيما في ترقية الحياة الدِّينية والتعليمية والعلمية بحيث صارت دولة المماليك مقصدًا لكل من ينشد التقدم والذود عن الدِّين وحماية أراضي الإسلام.

أما الجهاد فكان يمثل بالنسبة للمماليك العامل الأكبر للارتقاء بالشخصية المماليكية، وإنقاذها من الآثار النفسية التي فجرها الرأي العام في مستهل الحكم المملوكي بوصفه لأول سلاطينه بأنه مملوك قد مسه الرق؛ وأن المماليك عبيد.

والأمر الجدير بالاعتبار أن الدعوة إلى الجهاد من شأنها أن تجعل الأهالي يلتفون من حول العنصر المماليكي الذي أصبح يدرك تمامًا أهمية هذه الدعوة منذ أن ألحقوا سنة 648هـ/1250م الهزيمة بالفرنجة؛ وأنقذوا مصر من خطر ظل يتهددها على مر فترة طويلة الأجل، ووجد المماليك في هذا الانتصار سندًا ومبررًا لانتزاعهم الحكم الأمر الذي جعلهم يواصلون جهدهم لدرء كافة الأخطار التي منى بها المسلمون في الشرق الإسلامي تبريرًا لبقائهم في الحكم؛ وكان أعظم هذه المخاطر– آنذاك– خطران، وهما الخطر الصليبي والتتار.

وكان أن والى بَيْبَرْس لخوض ساحات الجهاد جهوده في تقوية جيشه، واهتم بدور صناعة السفن؛ وأشرف على بنائها؛ وأصبح هو المؤسس لأسطول المماليك.

وقصارى القول فإن دولة المماليك تأسست في مصر منذ عهد الظاهر بَيْبَرْس؛ على دعائم ثلاث؛ ولاء الشعب، وإحياء الخلافة العباسية، والجهاد؛ وهي نفس الدعائم التي أسس عليها صلاح الدِّين دولته.

الفصل الرابع

بيت قلاوون وتوريث الحكم في دولة المماليك

من المعروف أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ وراثة الحكم؛ وأيدوا فكرة البقاء للأقوى، وإحلال القاتل محل القتيل؛ وكلها مستجدات انطوى عليها النظام المماليكي في كثير من فترات حياته، رأيناها واضحة في صورة إرهاصة فيما نشب من أحداث ساهمت في تقليد المماليك سلطنة مصر، ثم ترسخت بمقتل قطز وإحلال بَيْبَرْس في السلطنة بديلا عنه، وتنامت في فترات أخرى من العهود المماليكية.

على أن بيت قلاوون ظل يحتفظ بمنصب السلطنة في دولة المماليك الأولى فترة زمنية جاوزت قرنا من الزمان(678–784هـ/1279–1382م) بصورة جعلت أبناء هذا البيت يشذون عن القاعدة العامة التي كان يؤمن بها أسلافهم؛ ويؤكدون على أهمية نظام التوريث في الحكم الأمر الذي يعد حالة فريدة في تاريخ دولة المماليك، وكان ذلك كله في نظر المؤرخين المحدثين علامة بارزة على ما سوف تشهده الدولة المملوكية في ذلك العهد من تقدم واستقرار على مر هذه الفترة الطويلة.

ومن الملاحظ أن هناك تمايزًا بين عهدين متتابعين ضمن سلسلة من العهود التي شهدتها دولة المماليك؛ وهما عهد التأسيس الذي خاضه الظاهر بَيْبَرْس بكفاءة واقتدار؛ وعهد التوريث الذي خاضه أبناء قلاوون، الأمر الذي جعل الأستاذ الدكتور محمد جمال الدِّين سرور يضع أطروحتيه في دراسة تاريخ وحضارة هذين العهدين؟ أولاهما بعنوان دولة الظاهر بَيْبَرْس في مصر، وثانيهما دولة بني قلاوون في مصر؛ وقد انصبت دراسته في هذه الأخيرة حول ما شهدته الدولة المماليكية في عهد بني قلاوون من ازدهار في حضارتها؛ واكتمال في معالمها؛ وإتمام لرسالتها الجهادية؛ وفي ذلك كله دليل على نجاح نظامها السياسي الذي انطوى على مبدأ التوريث في صوره المثالية خلال قسم كبير من حياة هذا العصر.

ويرجع الفضل إلى السلطان المنصور قلاوون في (إرساء هيبة بيته في النفوس، وفي إحاطة اسمه واسم أسرته بهالة المجد والعظمة)، وكان قلاوون أحد مماليك الصالح نجم الدِّين أيوب؛ وعرف بالألفي نسبة إلى الألف دينار التي دفعها في شرائه الأمير علاء الدِّين أقسنقر؛ وكان باعتباره قبجقيا(56) يماثل بَيْبَرْس في الجنس؛ ومن المماليك الذين هربوا من مصر عقب مقتل زعيمهم

(56) القِبْجَاق: أو القَفْجَاق بكسر القاف أو فتحها وسكون الباء الموحدة وفتح الجيم وألف بعدها ثم قاف، وهم جنس من الترك(قبيلة عظيمة من الترك)، سكنوا صحاري بلاد الدَّشْت أو صحاري القَبْجَاق، واستقروا في إقليم حوض نهر الفولجا في الجنوب الشرقي من روسيا حاليًا، أهل حل وترحال على عادة البدو. (القلقشندي: صبح الأعشى، ج4،

أقْطاي؛ وما لبث أن عاد إليها لمحاربة التتار، وبرز في عهد بَيْبَرْس حيث اعتمد عليه بوصفه أكبر أمراء دولته.

والحق أن قلاوون كان يرى في نفسه أنه أقوى الأمراء وأفضلهم وبتأثير العرف السائد عند المماليك أخذ يخطط من أجل الوصول إلى السلطنة ولئن عجز عن التعبير بما كان يراوده من طموحات في هذا السبيل فقد وجد فرصته بعد وفاة بَيْبَرْس الذي كان يدرك هو الآخر مكانته بين الأمراء؛ فزوج ابنه السعيد بركة بابنته غازية خاتون للحيلولة دون أن يطيح به بعد وفاته؛ وكان أن لجأ بَيْبَرْس إلى هذه الحيلة سنة 674هـ/1275م، ليحفظ منصب السلطنة من بعده لابنه.

لم يكف قلاوون عن خطته الرامية إلى اعتلاء منصب السلطنة بعد وفاة بَيْبَرْس، فأمهل زوج ابنته الملك السعيد بركة بن الظاهر بَيْبَرْس بعض الوقت حتى جعله يسرف في ملذاته؛ ثم نصحه بالتخلي عن السلطنة سنة 678هـ/1279م، وهكذا أمر بعزله متظاهرًا بأن يخلفه أخوه الصبي بدر الدِّين سلامش ليصير هو أتابك العساكر في توطئة لإحلال نفسه بديلاً عنه سلطانًا؛ وبعد أن وافقه الأمراء أصبح قلاوون الحاكم الحقيقي لدولة المماليك ينقش اسمه على السكة، ويذكر في الخطبة مع السلطان سَلامُش، وبينما كان تلك الحال شرع في التمهيد لنفسه بأن تخلص من مماليك بَيْبَرْس، وعزل أتباعه ومنافسيه من الأمراء، وأفسح المجال لأنصاره وزملائه المخلصين من البحرية، بعد أن أغراهم بالإقطاعات، و ولاهم المناصب، وفي 21 رجب678هـ/نوفمبر1279م، أمر بخلع الصبي سَلامُش وتقلد هو منصب السلطنة، بعد أن أقنع الأمراء المماليك بأن الدولة بحاجة إلى رجل قوي يواجه تحدياتها، وهكذا كانت أطماع قلاوون أعظم تأثيرًا وأقوى من روابط المصاهرة الأمر الذي يتفق والعرف المماليكي الذي أسلفناه بالإشارة.

اتبع السلطان المنصور قلاوون سياسة هادفة هادئة ترعى حقوق الناس؛ وتحسن صورة سياسة الملك؛ ولم يكد يرقى دست السلطنة حتى والى أعمال الخير؛ وأقام ضروب الإصلاح، وشيد المنشآت؛ واعتنى بأمر الجهاد إلى حد جعله يكتسب حب وولاء الأهالي في بلدان سلطنته؛ الأمر الذي كان له أكبر الأثر في جعل الحكم يبقى في بيته قرنًا أو يزيد.

ص256؛ المقريزي: السلوك، ج1ق3، ص663 حاشية(1)؛ ابن تغري بردِي: النجوم الزاهرة، ج6، ص255 حاشية(4)، ج7، ص94).

على أن سياسته الهادئة تجاه رعاياه لم تكن كذلك إزاء الخارجين عليه في أنحاء السلطنة، إذ انزل الهزيمة في 9 صفر 679هـ/1280م، بالأمير سنقر الأشقر الذي أعلن نفسه سلطانًا بالشام، ولم ير هذا الأخير غضاضة من الفرار حيث كاتب التتار وأطمعهم في غزو الشام، كما أوقف السلطان قلاوون اتصال الظاهرية بالصليبيين وأنزل بهم أشد العقوبات.

ولم يغفل السلطان قلاوون أهمية العنصر المماليكي في الذود عنه وحماية بيته فأكثر من شراء المماليك من عنصر الجركس؛ وأسكنهم أبراج القلعة؛ حيث حظوا بالتربية والرعاية؛ وعرف هذا العنصر عند المؤرخين بالبرجية نسبة إلى هذه الأبراج التي نشأوا فيها(57).

وفي الوقت الذي كان فيه المنصور قلاوون يحقق نجاحًا كبيرًا في الميادين المختلفة، ويلوح بقبضته الحديدية ضد خصومه في الداخل لم ينس– أبدًا– متابعة سياسته من أجل الحفاظ على منصب السلطنة في أهل بيته دونما اعتبار بذلك الإخفاق الذي منى به بَيْبَرْس في هذا السبيل، فعهد لابنه الأكبر علاء الدِّين علي، ثم أقامه سلطانًا في حياته679هـ/1280م، ولقبه بالملك الصالح؛ ولما توفي هذا الأخير خلفه في ولاية العهد أخوه خليل، الذي ما لبث أن تولى السلطنة بعد وفاة أبيه المنصور قلاوون في 7 ذي القعدة 689هـ/1290م، ولقب بالملك الأشرف صلاح الدِّين.

كان جديرًا بالسلطان الأشرف خليل بن قلاوون أن يدرأ عن نفسه حقد الأمراء؛ وعلى رأسهم نائب السلطنة حسام الدِّين طرنطاي الذي قتله وصادر أملاكه، وتفرغ السلطان بعد ذلك لقتال الصليبيين، حيث أوقع بهم ضربه قاسمة حرر بها عَكَّا بعد أن أقتحمها بجيش جرار في جُمادى الآخرة690هـ/نوفمبر1291م.

وعلى عادة كبار الأمراء؛ فقد حقدوا بزعامة الأمير بَيْدَرا على السلطان الأشرف خليل بعد انتصاره الكبير على الصليبيين في عَكَّا؛ وأجهزوا عليه في أول المحرم سنة 693هـ/1293م؛ لكن مماليكه تعقبوا بيدرا ومنعوه من تولي منصب السلطنة بعد أن قتلوه، ومهدوا بذلك السبيل أمام

(57) المماليك الجراكسة: نسبة إلى بلاد الجراكسة، وهى بعض بلاد الكرج(جورجيا)، بين بحر قزوين والبحر الأسود، وقد زاد عددهم في عهد السلطان قلاوون، وأطلق عليهم (البرجية)، حيث سكنوا في أبراج القلعة. (المقريزى: الخطط، ج2، ص241؛ إبراهيم على طرخان: مصر في عصر المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،1960م، ص9).

النَّاصر محمد بن قلاوون ليكون سلطانًا على البلاد بعد أيام قليلة من مقتل أخيه السلطان الأشرف خليل.

على أن السلطان النَّاصر محمد بايعه الأمراء سلطانًا وهو صبي لم يتجاوز السنة التاسعة من عمره مما يؤكد رعاية الأمراء له واحترامه بوصفه ابن السلطان المنصور قلاوون؛ لكن عادة المماليك لم تتغير؛ فبمجرد أن شعر الأمير كَتْبُغا، بمكانته بين الأمراء، جمعهم معلنًا لهم ضرورة إحلال من يقدر على ضبط الدولة محل النَّاصر محمد لكونه صبيا صغيرًا؛ وهكذا حل كَتْبُغا محل النَّاصر في 9 محرم سنة 694هـ/1294م، وتلقب بالعادل، وخطب له بمصر والشام.

لم يلق السلطان كَتْبُغا ترحيبًا من غالبية الناس في مصر الذين فضلوا عليه صبيا بدافع الولاء لأبيه المنصور قلاوون، ومما زاد الأمر سوءًا ما منيت به البلاد في بداية عهد كتبغا من وباء وغلاء حتى تشاءم منه الناس، وحنقوا عليه بدرجة بلغت مدى بعيدًا؛ وبالذات بعد أن أكرم جماعات من بني جنسه التتار(الأُوِيْرَاتِية)– كانوا قد وفدوا عليه فرارا من الإيلخان غازان– حيث أنزلهم بساحل الشام بالإضافة إلى القاهرة، وأجرى عليهم الأرزاق، وأقطع كبراءهم؛ وخلع عليهم، وميزهم على غيرهم دونما مراعاة لمشاعر المصرين الذين استاءوا كثيرًا من وثنيتهم، وأعدادهم الغفيرة التي بلغت نحوًا من عشرة آلاف وافد.

ولم يسلم كَتْبُغا– بطبيعة الحال– من حقد الأمراء فوجد نائبه الأمير حسام الدِّين لاجين في استياء المخلصين لبيت قلاوون من المماليك والأتباع والأهالي إزاء ما أقدم عليه هو ومماليكه تجاه الأمراء فرصة للخلاص منه، فدبر مؤامرة لعزله أثناء العودة من الشام، فعندما علم هرب إلى دمشق، وما لبث لاجين أن تولى السلطنة بديلا عنه في المحرم سنة 696هـ/1296م، وتلقب بالملك المنصور.

على أن تولي حسام الدِّين لاجين سلطنة المماليك لم يرض المصريين الذين حافظوا على ولائهم لبيت قلاوون؛ ولم يغفل لاجين ذلك الولاء فأظهر للناصر محمد بن قلاوون بأنه سوف يعيد إليه حقه في السلطنة وأن وجوده عليها لم يكن سوى قيامه بالوصاية عليه حتى يبلغ رشده.

أوقع لاجين نفسه فيما وقع فيه سلفه العادل كَتْبُغا؛ إذ فوض لمملوكه مَنكُوتَمُر أمر البلاد والعباد مما جعل الأمراء وبعض مماليكه ممن اصطفاهم في مصر يجهزون عليه في 11 ربيع الآخر 698هـ/1298م، ثم قتلوا مَنكُوتَمُر، وسرعان ما تدخل كبار الأمراء بزعامة بَيْبَرْس الجاشنكير، وطالبوا باستحضار النَّاصر محمد بن قلاوون من الكَرَك، وفي وقت تولي فيه القتلة نيابة السلطنة وأمروا ونهوا، حتى عاد النَّاصر محمد إلى السلطنة حيث تبوأها للمرة الثانية في 14 جُمادى الأولى سنة 698هـ/1298م، وأتبع النَّاصر محمد ذلك بأن كافأ الأمراء المخلصين، فجعل بَيْبَرْس الجاشنكير أستاذ للدار، وبَكْتَمُر الجوكندار أمير خزينة دار، وجمال الدِّين أقوش الافرم نائبا على الشام، ثم أفرج عن المعتقلين؛ ووضع سياسة حكيمة في إدارة دولته، ووالى اهتمامه في درء الخطر التتري.

وعلى الرغم من صغر سن النَّاصر محمد إبان سلطنته الثانية إلا أن عساكره أنزلت بجيش غازان الإيلخاني هزيمة ساحقة عند مَرج الصُفَّر(شَقْحَب) (58) في 2رمضان702هـ/1302م، واستقبل سلطان المماليك في دمشق والقاهرة استقبالاً حافلاً، وازداد الناس تفاؤلاً به، لكن ما جبل عليه أمراء المماليك قد حال دون استقرار النَّاصر محمد في السلطنة، إذ ضيق عليه الأمير بَيْبَرْس الجاشنكير طامعا في عزله وإحلال نفسه بديلا عنه سلطانًا؛ ومن أجل ذلك دخل في مواجهة علنية مع مماليكه دون أن يبالي بأهالي مصر والقاهرة الذين عطفوا على السلطان النَّاصر محمد؛ وأحبوه حبا جماً، وتظاهروا من أجله متجاهرين بعدائهم لبَيْبَرْس الجاشنكير، والأمير سَلاَّر الذي عاونه.

وجد بَيْبَرْس الجاشنكير وسلار(نفسيهما في مأزق إزاء مناصرة الرأي العام للسلطان الصغير)؛ ولم يروا بدا من تجديد ولائهما للناصر محمد الذي اضطر إلى إزاحة ما علق في أذهان الناس تجاههما من شكوك؛ لكن الرجلين ظل يضمران السوء للسلطان، وأحكما قبضتهما على (المملكة والأموال)؛ وحاصراه في القلعة؛ وأرغم الأمراء في النهاية على مبايعة بَيْبَرْس الجاشنكير في23 شوال سنة 708هـ/1308م؛ ومما قيل أن السلطان النَّاصر محمد اتجه إلى الكَرَك، حيث راسل الأمراء في

(58) شقحب: قرية في الشمال الغربي من غباغب من أعمال حوران من نواحي دمشق، ويقال لهذه الوقعة شقحب أوغباغب لأنها مشتملة على طرف منهما، وهم أسماء قرى هناك .(ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص 184؛ العيني: عقد الجمان، ج4، ص 231).

مصر معلنا عن رغبته في عدم العودة إلى السلطنة مرة أخرى، واضطر الأمراء في النهاية إزاء إصراره إلى مبايعة بَيْبَرْس الجاشنكير بالسلطنة ولقبوه بالمظفر ركن الدِّين بَيْبَرْس المنصوري.

على أن النَّاصر محمد بن قلاوون كان لا يزال يحظى بتأييد شعب مصر والشام بوصفه صاحب السلطة الشرعية في السلطنة؛ وازداد تعلقا بها– وبالذات– في مصر بفعل ما داهمه من مشاكل اقتصادية عجز عن تجاوزها بَيْبَرْس الجاشنكير على أثر انخفاض النيل عن الحد اللازم للري.

وقد عبر المصريون عن حبهم للناصر محمد بن قلاوون بتلك التظاهرة التي طافوا بها شوارع القاهرة؛ وبصورة أكبر من تلك التي قاموا بها من قبل ضد كَتْبُغا حين انتزع السلطنة من النَّاصر محمد، واخذوا يرددون(سلطاننا زُكين، ونائبنا دُقين،... يجينا الماء منين، جيبوا لنا الأعرج، يجي الماء ويدّحرج)(59).

ولم يلق السلطان المظفر بَيْبَرْس الجاشنكير أدنى ترحيب من نواب الشام الذين أعلنوا ولاءهم للناصر محمد على اعتبار أنه أحد أبناء السلطان المنصور قلاوون، وبلغ الأمر بأمراء حلب وطرابلس وحماه أن راسلوا النَّاصر محمد وهو بالكرك ليأذن لهم بالقدوم إليه مناصرته، ويشير المقريزي إلى موقف السلطان بَيْبَرْس الجاشنكير تجاه ذلك التحالف الذي أضعف مكانته، بأنه قد ترك النواب الثلاثة وصب غضبه على النَّاصر محمد؛ وهدده بنفيه إلى القسطنطينية، لكن النَّاصر محمد أصبح مهيبا قويًا بين أنصاره؛ وأعاد خطبته في الكرك؛ وزاده عسكر دمشق قوة حين استدعوه للقدوم إليهم، ثم كاتبه أمراء وأهالي حلب مشجعين إياه للمطالبة بحقه في العودة إلى السلطنة، فسار من الكرك بمن معه في جمادى الآخرة سنة 709هـ، وكان أن تباطأ في الطريق لأسباب خلافية وقعت بين بعض الأمراء أوجبت عليه العودة إلى الكرك، لكن عساكر دمشق؛ ومؤيدوه بالنيابات الشامية كاتبوه في الخروج من محبسه، فانطلق ثانية من الكرك قاصدًا دمشق، فوصل إليها في 18 شعبان 709هـ/1309م، حيث أطاعته عساكرها؛ ورد النَّاصر ثم شرع في المسير من دمشق قاصدًا القاهرة في 9 رمضان سنة 709هـ/1309م.

(59) المقصود بلفظ(ركين) السلطان ركن الدِّين بَيْبَرْس الجاشنكير، وبلفظ(دقين) الأمير سلاَّر النائب، فإنه كان أجرد وليس بلحيته وشاربه سوى شعرات قليلة، وأما الأعرج فهو الناصر محمد بن قلاوون حيث كان به عرج.(راجع: المقريزي: السلوك، ج2ق1، ص55 حاشية(1)؛ ابن تغري بردِي: النجوم الزاهرة، ج8، ص244؛ ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج1 ق1، ص425).

أما السلطان بَيْبَرْس الجاشنكير فلم يجد تأييدًا من المصريين والأمراء ليبقى وقتًا آخر في السلطنة، وما لبث أن اعتزل الحكم، وهرب إلى أطفيح صعيد مصر حاملا معه أموالا وخيولاً، على حين صعد النَّاصر محمد قلعة الجبل في مستهل شوال 709هـ/1309م، وفي إثره العساكر الشامية والمصرية، حيث تولى السلطنة للمرة الثالثة، ولما استرد كل ما أخذه بَيْبَرْس الجاشنكير بغير حق، وفاجأه عند غزه أثناء محاولته الهرب إلى الشام، وقتله.

ومما تجدر ملاحظته أن تضييق العامة على بَيْبَرْس الجاشنكير، والتفافهم وكافة الناس حول النَّاصر محمد قد وضع الخناق حول هذا الأول وأرغمه على خلع نفسه؛ واعتزال الحكم الأمر الذي يؤكد تلك الأهمية التي وضعها المنصور قلاوون بكسبه لولاء المصريين، وعول عليها في تحقيق أكبر أهدافه التي كان يسعى إليها ألا وهي الحفاظ على السلطنة في بيته.

وتتنامى مظاهر الحب التي أولاها المصريون للنَّاصر محمد بن قلاوون بمشاركة الأمراء والمماليك والأجناد، وكبار رجال الدولة، وكان أن بسط النَّاصر محمد عليهم عطاءه الموفور بينما عاقب من تآمر عليه من الأمراء في ظل سياسة حكيمة وضعها لتوطيد حكمه بعد أن بلغ الخامسة والعشرين من عمره.

وامتد تأثير تلك السياسة بحيث صارت سلطنة المماليك أكبر قوة في الشرق الإسلامي؛ وأصبح نفوذ النَّاصر محمد يسود أماكن شاسعة من المغرب غربا حتى الشام والحجاز شرقا، ومن النوبة جنوباً حتى آسيا الصغرى شمالا، بينما كان عهده في الداخل عهد رخاء واستقرار وعمران، ويكفى أن تشير هنا إلى أن سلطنته الأخيرة قد قدر لها أن تدوم إحدى وثلاثين عامًا حافلة بكل ضروب التقدم والإصلاح؛ وأعمال البر، وإبطال المكوس، وكان أقبل أهالي البلاد عليه يتمسكون به؛ وبأولاده وأحفاده من بعده؛ ولما توفي في سنة 741هـ/1340م، تألم الناس لفراقه، وترحموا على زمانه.

يتضح لنا مما تقدم أن السلطان المنصور قلاوون قد أنشأ بيتا تمتع بإخلاص رعاياه لما كان لذلك البيت من فضل في التوسعة عليهم؛ وما أسهم في صنعه من أمن وسكينة، ظهرت آثارها بجلاء في عهد النَّاصر محمد إبان سلطنته الثالثة الأمر الذي مهد الطريق لأولاده وأحفاده أن يتناوبوا بعد سلطنة المماليك على مر أربعين عامًا أخرى.

وكان أن بدأ السلطان النَّاصر محمد سياسته للحفاظ على منصب السلطنة في بيته بأن عهد لولده أبي بكر، وبويع هذا الأخير بالسلطنة، وجلس عليها بعد موت والده، ولقب بالملك المنصور.

على أن السلطان الملك المنصور أبا بكر قد تعرض لاحتجاج قوْصُون النَّاصري أحد أمرائه مما أدى إلى عزله ونفيه إلى قوص من صعيد مصر، لكن قوْصُون هذا لم يكن لديه بديل يوليه السلطنة ويبايعه سوى كُجَك ابن النَّاصر محمد، وأخى المنصور أبي بكر، وكان عمره آنذاك ثمان سنوات، فأقامه سلطانًا، ولقبه بالملك الأشرف، وفي ضوء ذلك يمكن القول بأن الناس تمسكوا بسلالة النَّاصر محمد بعد وفاته على الرغم من أنه كان بينهم من لا يستحق الملك إما لضعفه أو لصغر سنه، وكان لهيبة قلاوون التي ازدادت رسوخا في عهد النَّاصر محمد دورها الفعال في جعل الحكم المماليكي يدوم طويلاً بين أبناء وأحفاد هذا البيت إلى حد نودي بأحدهم وعمره عام وحده.

على أن خلفاء النَّاصر محمد وأبنائه وأحفاده لم يحافظوا على مسيرة الدولة وتقدمها، إذ سرعان ما تعرضت سلطنة المماليك– على عهدهم– لحالة من الفوضى والاضطراب؛ ومنيت مصر بوباء عظيم سنة 749هـ؛ واقترن ذلك كله بظهور المنافسات بين الأمراء الذين سلبوا نفوذ سلاطينهم؛ وكان من بينهم جراكسة حظوا بمكانة فريدة أو صلتهم إلى دست السلطنة سنة784هـ.

حملة بطرس لوزجنان على الاسكندرية سنة 767هـ/1265م:

لقد أحدث استرداد السُّلْطان الأشْرَف خَليل بن قلاوون لعَكَّا وتطهيره ساحل الشام من الإمارات الصليبية نهائيًا في سنة 690هـ/1291م، ردة فعل عنيفة في الغرب الأوربي، حيث دفع ذلك البابوية لاتخاذ إجراءات صارمة نحو الدولة المملوكية، فكانت فكرة مهاجمة الأراضي المقدسة لم تتوقف في أذهانهم، ولكن هذه المرة بشكل آخر عن طريق تطبيق الحصار الاقتصادي أو بمعنى آخر الحرب الاقتصادية. وتمثل ذلك في قيامها بالدعوة لتحريم الاتجار مع الدولة المملوكية، مهددة بتوقيع قرارات الحرمان من الكنيسة على كل من يخالف أوامرها من المدن والجمهوريات والدول المسيحية التي تتعامل تجاريًا مع دولة المماليك. وقد أصدرت البابوية عدة مراسيم تحرم على التجار الأوربيين الذهاب بسفنهم إلى شواطئ دولة المماليك والتجارة هناك، ولكن كثيرًا من التجار الايطاليين رفضوا تنفيذ هذه الأوامر حرصًا على مصالحهم الاقتصادية، فكان من البابوية أن أنشئت قوة بوليسية بحرية في شرق البحر المتوسط لمنع هؤلاء التجار من التجارة مع دولة المماليك. وكانت

جزيرة قبرص في شرق البحر المتوسط المكان الأمثل في مراقبة الشواطئ الإسلامية في مصر والشام من جهة، وشن الغارات على موانيهم من جهة أخرى. وكان ملوك قبرص من آل لوزجنان(لوزينان) قد رحبوا بتقديم المساعدات والمشاريع التي من استهدفت دولة المماليك، بل وشاركوا بأنفسهم في الهجوم على المسلمين(60). وهو ما حدث في عهد الملك بطرس الأول دي لوزجنان، الذي تولى عرش قبرص في سنة 761هـ/1359م، حيث عُرف بحماسته الدِّينية، ففكر في القيام بحملة صليبية كبيرة ضد المماليك، وهو ما جعله يقوم برحلة إلى الغرب الأوربي للحصول على مساعدات من البابوية وملوك أوربا في سنة (764– 766هـ /1362–1365م).

اجتمعت القوات الصليبية بقيادة بطر س الأول في جزيرة رودس، ووقع الاتفاق على اختيار الاسكندرية لغزوها؛ نظرًا لأهميتها التجارية بما حوته من أسواق تتجمع بها السلع والبضائع الشرقية، وكونها تمثل نهاية لطرق التجارة الشرقية ونقطة بداية لطرق التجارة المتجهة إلى الغرب الأوربي.

أما مصر فكانت على علم بتحركات الملك بطرس الأول، ولم يكن هناك اهتمام كبير من السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون، و الأمير يلبغا الخاصكي الاتابك بهذه الأخبار، كما كان الأمير خليل صلاح الدِّين بن عرام والي المدينة متغيبًا في مكة بسبب الحج، وأمام سوء الاستعدادات في الاسكندرية هجم الملك بطرس الأول بقواته على المدينة في يوم الجمعة 22 من المحرم 767هـ/العاشر من أكتوبر 1365م، وأخذوا ينهبون البضائع ويدمرون المنازل والخانات والأسواق، ويقتلون النساء والأطفال والشيوخ. وهكذا قضى الصليبيون في الاسكندرية« يقتلون وينهبون ويأسرون الجمعة والسبت والأحد»(61)، ولم يغادروها إلى سفنهم إلا بعد أن شعروا بقدوم القوات المملوكية من القاهرة. كما تعرضت طرابلس الشام سنة 769هـ/1367م للإغارة من قبل بطرس الأول، غير أنها منيت بالفشل(62).

(60) سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص137-138.

(61) النويري الاسكندراني: الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في واقعة الاسكندرية، ج2، ص256.

(62) المقريزي: السلوك، ج3ق1، ص149-150.

على أية حال، لقد شهد عصر أولاد النَّاصر محمد بن قلاوون وأحفاده حالة من الصراع بين كبار الأمراء في الدولة المملوكية واشتداد سطوتهم، مما أدى إلى تعاقب عدد كبير من السلاطين ومعظمهم كانوا صغارًا مما جعلهم ألعوبة في أيدي كبار الأمراء. مما عرض البلاد لحالة من التدهور والفوضى.

وحصاد ذلك كله فإن النظام المماليكي الذي اعتمد على مبدأ البقاء للأقوى وأوجب ظهور كثير من الفتن والمؤامرات بين الأمراء، قد خف من حدته وخطورته تلك السياسة التي اتبعها السلطان المنصور قلاوون تجاه رعاياه وأهالي البلاد بحيث صار من السهل عليه أن يحافظ من وراء ذلك على السلطنة في بيته أمدًا تجاوز قرنا من الزمان.

الفصل الخامس

تاريخ دولة المماليك الجراكسة

سلطنة المماليك الجراكسة وأهم أحداثها الداخلية والخارجية:

استكثر السلطان المنصور قلاوون من شراء العنصر المماليكي من بلاد الجركس؛ وسار أبناؤه وأحفاده على نفس سياسته، وزادوا في الإكثار من ذلك العنصر، وما لبث هذا العنصر أن حقق أهداف قلاوون من حيث مساندة خلفائه في الحفاظ على السلطنة في بيته، فضلا عن ما كان يلقاه ذلك العنصر من سند عسكري حال دون أن يسمح باستمرار السلطنة بيد المماليك الأتراك.

ومما لاشك فيه أن ما حظي به الجراكسة من تربية ونظم دفعت بهم إلى تبوأ المناصب الكبرى في الدولة المملوكية قد صنع من هذا العنصر طبقة مماليكية متميزة الأمر الذي من شأنه أن أوجد تنافسًا عنصرياً بين المماليك الأتراك والجراكسة، ووسط ذلك الركام الذي أضعف من أمر السلطنة في أواخر عهد بني قلاوون برز على الساحة السياسية الأمير برقوق(63) أحد الأمراء الجراكسة وكان أن احتل هذا الأمير مكانة مرموقة بتأثير توليه لأتابكية العساكر على عهد السلطان(المنصور علاء الدين علي بن الأشرف شعبان778–783هـ/1376–1381م)؛ وهو السلطان الذي لم يكد قد بلغ من العمر– آنذاك– سوى ست سنوات مما يعكس مدى ما كانت تسمح به أحوال السلطنة لبرقوق من قول ونفوذ؛ وكان أن ظهر أثر ذلك حينما توفي السلطان الصغير؛ فأقنع برقوق الأمراء وأهل الحل والعقد ببقاء السلطنة في بيت قلاوون حيث تبوأها سنة 783هـ، بإشارة منه وهو صغير أمير حاجي حفيد الناصر محمد بن قلاوون(الصالح صلاح زين الدين حاجي بن الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون(783–784هـ/1381–1382م)، بينما اقترب هو من العامة، بإصلاحه للنظام النقدي، والتخفيف عنهم عبء الضرائب، وظل حتى بايعه الأمراء والخليفة العباسي والقاضي سلطانا بعد أن زين للأمراء أمر عزل السلطان لضعفه وصغر سنة وذلك في 19رمضان 784هـ/1382م؛ ومنذ ذلك الوقت امتلك الجراكسة السلطنة المملوكية، وظلوا عليها حتى أبعدهم عنها العثمانيون.

(63) أخذ من بلاد الجركس جَلَبَه الخواجا ثمان بن مسافر؛ فاشتراه الأتابك الأمير يَلْبُغا العُمَري الخَاصكي، وأعتقه، وجعله من جملة مماليكه الأجلاب. وكان اسمه أَلْطُنْبُغا فسماه الأمير يَلْبُغا – برقوق- لنتوء في عينه. (المقريزي: السلوك، ج3ق2، ص476؛ ابن تغري بردي: مورد اللطافة في من وِلِيَ السَّلطنة والخلافة، ج2، ص109).

والحق أن دولة المماليك الجراكسة لم تكن كسابق عهدها من القوة والتقدم؛ بل قدر لها أن تشهد عهدًا مضطربًا يسوده الفتن والتوتر؛ وأصبح الوصول إلى السلطنة لا يأتي إلا من خلال الإيقاع بين الأمراء وطوائف المماليك.

على أن السلاطين الجراكسة لم يقصروا–أبدًا– في ميادين القتال وأحيوا بذلك مجد أسلافهم من سلاطين الأتراك؛ وكانوا من أجل ذلك قد حاولوا التغلب على كافة المشاكل التي اعترضت مسيرتهم في المجالين الاقتصادي والاجتماعي اللذين تراجعا آنذاك بسبب ما منيت به مصر من محن دامت سنين عددًا. ولدينا أدلة تبرهن على ذلك الاضمحلال والتوتر اللذين منيت بهما مصر على عهد سلاطين الجراكسة؛ لعل من أبرزها ما كان يجرى حول منصب السلطنة من منازعات بين الأمراء؛ فهذا السلطان الظاهر برقوق الذي لم يكد يمر سوى فترة زمنية قصيرة جدًا على توليه السلطنة سنة 784هـ/1382م، حتى دبرت مؤامرة ضده لعزله، حيث قام الثائران مِنْطَاش(64) ويلبغا الناصري(65) سنة 791هـ من إعادة أمير حاجي حفيد الناصر محمد إلى السلطنة، وما لبث برقوق أن انتهز نزاعًا كان قد نشب بين هذين الثائرين واسترد مكانته في السلطنة سنة 792هـ/1390م، وتفرغ بعد ذلك لإخضاع الثائر منطاش بالشام، وكذلك تعرض ابنه الناصر فرج الذي تولى السلطنة وعمره ثلاث عشرة سنة سرعان ما اختفى ليحل محله أخوه المنصور عبد العزيز سنة 808هـ/1405م؛ ولما هدأت الأحوال عاد إلى السلطنة ليقضى بقية عهده في إقرار الأوضاع ببلاد الشام، لكنه لم يستطع مقاومة الأميرين شيخ المحمودي نائب حلب ونوروز الحافظي(66) نائب طرابلس؛ فاستسلم لهما سنة 815هـ/1412م؛ وانتهى الأمر بقتله في العام نفسه؛ وما لبث خصماه شيخ ونوروز أن تنافسا حول السلطنة، وفاز بها الأول، ولقب بالمؤيد، ولما عارضه الثاني كان مصيره

---

(64) هو الأمير تَمُرْبُغا بن عبد الله الأفضلي منطاش، من مماليك الأشرف شعبان قلده الظاهر برقوق نيابة مَلَطْيَة ثم خرج عن الطاعة وتحالف مع الأمير يلبُغا الناصري في عزل برقوق وحبسه بالكرك. ثم حدث خلاف بينه وبين الأمير يلبغا وانفرد بعد ذلك بالسلطنة في ظل الوجود الاسمي للسلطان المظفر حاجي، ودخل في حروب بعد خروج الظاهر برقوق من حبسه بالكرك حتى قتل في قلعة حلب سنة 793هـ/1393م. (ابن تغرى: المنهل الصافي، ج4، ص94 رقم 782 ؛ الدليل الشافي، ج1، ص 223 رقم 789).

(65) هو الأمير يلبُغا الناصري الأتابكي؛ مملوك يلبُغا العمري، رفيق منطاش، دخل في نزاع مع السلطان برقوق حتى عزله عن السلطنة، ثم قام الأمير منطاش بحبسه بالإسكندرية بعد أن كان مدبر مملكة السلطان المنصور حاجي، توفى سنة 793هـ/1390م .(ابن تغرى بردى: المنهل الصافي، ج12، ص162 رقم 2683 ؛ الدليل الشافي، ج2،ص793 رقم 2673).

(66) هو الأمير نوروز بن عبد الله الحافظي الظاهري، ت817هـ/1414م(ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج2، ص762-763رقم 2597).

القتل، وبعد وفاة شيخ سنة 824هـ/1421م، لم يستطع ابنه أحمد البقاء في السلطنة سوى أشهر(محرم–شعبان824هـ)؛ وتم عزله ليخلفه الأمير طَطَر مدة قصيرة، ثم يأتي بعد طَطَر ابنه محمد بوصاية الأمير برسباي الذي استطاع الوصل إلى السلطنة سنة 825هـ/1422م. وتلقب بالأشرف وسط ترحيب أهل الحل والعقد لما كان يملكه من عقل راشد في ضبط أجهزة الدولة، وهكذا منى النظام السياسي في دولة الجراكسة بعدم الاستقرار لما ساده من توتر واضطراب.

على أن الفترات التي حظيت باستقرار سياسي في دولة المماليك الجراكسة كانت لا تمثل سوى جزء يسير في حياة هذه الدولة، وكان أكثرها هدوءًا تلك الفترة التي حكم خلالها السلطان الأشرف برسباي؛ وهي فترة قاربت على ستة عشر عامًا، حفل فيها تاريخ مصر والشام بأحداث جهادية وسياسية كان لها شأن عظيم في حماية الإسلام، ولئن عاب المؤرخون على برسباي سياسته الاقتصادية التعسفية؛ إلا أنه كان صاحب فضل في أن يستمر خليفته السلطان الظاهر جقمق على نفس سياسته الجهادية ضد الغزاة، منذ أن تولى السلطنة في سنة 842هـ/1438م، وقدر لدولة الجراكسة بعد ذلك أن تشهد تراجعا في حياتها السياسة على مر ستة عشر عاما – تقريبا–(856–872هـ/1452–1468م)، إذ اعتلى سلطنتها–آنذاك– سلسلة من السلاطين الضعاف، بصورة لم يسبق لها مثيل؛ فبعضهم لم ينل السلطنة سوى أيام قليلة، وآخر تولى ليلة واحدة(67).

أما الفترة الزمنية التي ينبغي أن يشار إليها بالاهتمام تلك التي تولى خلالها السلطان الأشرف قايتباي872هـ/1468م، سلطنة المماليك؛ ففي خلال تسع وعشرين عاما كانت هي جملة ما حكمه هذا السلطان من أعوام استطاع أن يكسب مصر مكانة لا بأس بها في العالم الإسلامي على الرغم من سوء الأحوال الاقتصادية التي سادت البلاد؛ وثورات المماليك، وما أثاره التركمان على الحدود الشمالية لدولته؛ ومحاولات الغرب الأوربي الناجحة في إيذاء سلطنة المماليك لمنع قيامها بدورها الطبيعي في المجال التجاري، الأمر الذي فجر بعد قايتباي صراعا مريرًا بين المماليك والبرتغاليين، وعلى عهد السلطان الأشرف قانصوه الغوري(906–922هـ/1501–1516م)؛ فقدت مصر مكانتها في هذا المضمار بعد أن تهاوى دورها التجاري مع الشرق الأقصى والغرب الأوربي.

(67) يعني به السلطان خاير بك الذي تسلطن في المساء ، وتم عزله في الصباح مما جعل المعاصرين يطلقون عليه اسم" سلطان ليلة"(ابن إياس: بدائع الزهور، ج2، ص474؛ سعيد عاشور: الأيوبيين والمماليك، 286-287).

سياسة المماليك الجراكسة تجاه الأخطار الخارجية:

تجاه التتار:

واجه السلطان الظاهر برقوق خطرًا مروعًا يتمثل في التتار بزعامة تيمورلنك الذي لم يكف عن فكرته الرامية لغزو الأطراف الشمالية لدولة المماليك.يكشف لنا الغزو التيموري لبلاد الشام طبيعة الصراع بين القوى المتنافسة في الشرق الأدنى الإسلامي فيما بين القرنين الثامن والتاسع الهجريين(الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين)، كما أن أخبار هذا الغزو يؤكد لنا بما لا يدع مجالًا للشك دور السلطنة المماليكة على طريق درء الأخطار المحدقة بمصر وبلاد الشام جملة وتفصيلًا، ذلك أن مصر كانت تمثل في عهد ازدهار تلك السلطنة مركز الحماية لشرق البحر المتوسط فضلًا عن دورها في تأمين كثير من بلاد الشرق الإسلامي المشمولة بالحماية المماليكية على حين يسود الاضطراب تلك البلاد إذا ما أخذت هذه السلطنة سبيلها إلى الضعف.

وأكبر دليل على صحة ما ذهبنا إليه ذلك الصراع المماليكي المغولي بين عهدين، أولاهما يرتبط بذلك الدور الذي قامت به مصر في درء الخطر الإيلخاني عن بلاد الشام في عهود قطز وبيرس وبني قلاوون، وثانيهما إخفاق السلطنة المملوكية الجركسية في درء الخطر التيموري الذي حل بتلك البلاد ، ومحور النزاع في هذا الميدان نجاحا أو إخفاقًا في هذين العهدين ظل موقوفًا فترة طويلة من الزمن على دور مصر المملوكية سلبًا أو إيجابًا في مواجهة الأطماع المغولية ، ذلك أن مصر أسهمت بدور هائل في وقف الأطماع الإيلخانية التي تدور حول محور واحد وهو نشر الأطماع في بلاد الشرق رغبة في تكوين إمبراطورية إيلخانية مترامية الأطراف.

ويأتي دور مصر في هذا السبيل من خلال الجهود الموفقة التي بذلها السلاطين المماليك، بعد انتصارهم في عين جالوت، إذ ضموا بلاد الشام إلى مصر، وأفادوا من موارد هذه البلاد، وأخضعوا النظام الإقطاعي ليكون أداة طيعة في خدمة الصرف على نفقات الجيوش وإعلان الجهاد، مدفوعين فيما نرى بذلك الاستقرار الاقتصادي الذي ساد مصر فضلًا عن الارتقاء بالشخصية المملوكية التي لقيت استياءا إبان قيام دولتهم، على أن الدافع الأول له نتائجه البالغة الأهمية في

الانتصارات التي أحرزها بيبرس(656-676هـ/1260-1277م)، ووقفه للغارات الإيلخانية حتى وفاته.

ولا ننسى في هذا السبيل العامل الديني، وإسهام مصر في توحيد الجبهة الإسلامية بانضمام العناصر المماليكية المارقة في الشام إلى جانب السلطة الحاكمة في مصر، وإحياء الخلافة العباسية، وإتباع المذاهب السنية الأربعة في الوظائف العلمية والقضائية، وتأتي هذه الإجراءات تتويجًا لما اتخذه المماليك في مصر سبيلًا للنهوض بالمسلمين وسبيلًا-أيضًا- للارتقاء بالشخصية المملوكية التي باتت عنصرًا فعالًا ومؤثرًا في تطور الأحداث السياسية في منطقة الشرق الإسلامي في وقت تطلع فيه المسلمون في هذه المنطقة إلى قوة تخلصهم من الوثنيين المغول.

كانت للجهود التي بذلها المماليك الأوائل أكبر الأثر في القضاء على الأسطورة المغولية التي تقول أن (المغول قوم لا يغلبون)، على حين اختلف الامر في بداية الدولة المملوكية الثانية(784-923هـ/1382-1517م)، ذلك أن دور مصر في وقف الأخطار الخارجية كان إذ ذاك ضعيفًا ضيقًا محدودًا ويرجع ذلك إلى الأزمة الاقتصادية التي أخذت تزحف على مصر منذ سنة الشراقي سنة 776هـ في عهد السلطان الأشرف شعبان، وامتدت تلك الازمة على مر فترة زمنية طويلة كانت إيذانًا باضمحلال سلطان المماليك في مصر والشام، على أن تلك الأزمة اشتدت في عهد السلطانين الظاهر برقوق(784-801هـ/1382-1398م)، وابنه فرج(801-815هـ/1389-1412م)، ولنضرب مثلا بعهد الأول إذ تعرضت البلاد في عهد قبل قدوم تيمور لنك بجحافله على الشام لأزمتين خلال سنتي 797هـ و801هـ، وكان من شأنهما أن ألقيت البلاد المصرية في هوة من الفوضى واشتد الغلاء بالناس بعد أن استولى الفناء أراضيهم.

واقترنت هذه الأزمة بقيام النزاع السياسي بين المماليك الأتراك والمماليك الجراكسة، وأفقد ذلك النزاع السلطان برقوق سلطانه فترة قصيره، غير أنه ما لبث أن عاد سريعًا إلى مقعد السلطنة من جديد. ومما يجدر ذكره في هذا السبيل أن الناس في الشام ومصر انشغلوا بهذا الصراع الداخلي حول السلطنة معبرين عن سخطهم تجاه السلطة الحاكمة، فنهبوا القلعة، واستولوا على ما في حواصل الإسطبل السلطاني من سروج، كما كان للعامة في مصر خلال تلك الأزمة دور في التعبير عن

سخطهم للسلطة الحاكمة، فخرجوا في صورة ثورات معلنين استيائهم إزاء ما ألم بهم من ظلم وجور في ظل النظام الإقطاعي.

والأمر الجدير بالذكر أن هذه الأحداث قد ألمت بمصر والشام في وقت كان فيه تيمور قد نجح في دخول العراق سنة 795هـ وأخذ يزحف بجحافله على بلاد الشام، فانشغل برقوق بأنباء الغزو التيموري وأخذ يعد العدة، غير أن الضعف والوهن الذي أصاب جبهته الداخلية لم يعطه فرصة الوثوب على تيمور، على أن هذا الأخير انشغل بتوسعاته في بلاد الكرج، وحوض الفولجا والهند مما أتاح لبرقوق فرصة في أن يكسب ولاء البلاد المشمولة بحمايته والعثمانيين، وانتهى الأمر بنجاحه في تكوين جبهة موحدة ضمت صاحب سيواس وزعيم التركمان(الشاة السوداء)ن وخان القبيلة الذهبية، والسلطان العثماني بايزيد.

خرج السلطان برقوق إلى الشام ثم إلى حلب مدفوعًا بتلك الجبهة لإعادة أحمد بن أويس الجلائري إلى عرشه في بغداد، غير أنه ما لبث أن عاد إلى القاهرة حيث توفي سنة 801هـ/1399م، دون أن تتاح له الفرصة لإظهار شجاعته.

ولم تكن بداية السلطان فرج بن برقوق أحسن حالًا من عهد أبيه، إذ ثار في وجه نواب الشام وحماه وطرابلس وحلب والعرب والتركمان، وتنضم إلي جانبهم الأمير أيتمش في القاهرة، وعلى الرغم من إخماد هذه الحركة، إلا أنها سرعان ما عادت سيرتها الأولى في وقت كان تيمورلنك قد أظهر أطماعه في أراضي الدولة المملوكية.

ومن الثابت أن مصر في عهد فرج بن برقوق كانت تعاني أزمة اقتصادية طاحنة أشار إليها المؤرخون المعاصرون (بأعوام المحن)، حيث انخفضت مقادير الجباية في كافة الأعمال المصرية بصورة لم يسبق لها من قبل، وواكبت تلك الأزمة ظهور التهديدات التيمورية لأراضي الدولة المملوكية، ومن ثم كان دور مصر في مواجهة هذه الأخطار ضعيفًا، وانتهى الأمر بأن نجح تيمور لنك في الإغارة على الاشم، وغنم مغانم كثيرة ما لم يحققه الإيلخانيون في تلك المنطقة في أوج عظمتهم اللهم إلا ذلك القدر الضئيل الذي أحرزوه زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

والواقع أنه لم تكن هناك جهود قام بها الجراكسة في تلك الآونة تعويضًا لما منيت به البلاد من هزات سياسية داخلية وأزمات اقتصادية، ذلك أنه لم تكن هناك ظروف تسمح بإعلان الجهاد الديني بالصورة التي رأيناها عند المماليك الأوائل، وكل ما في الأمر أن السلطان الظاهر برقوق لما أحس بخطر تيمورلنك سارع إلى مراسلة السلطان العثماني بايزيد وقرا يوسف زعيم التركمان يستحثهما للوقوف بجانبه لدرء الخطر الذي الم بهم جميعًا، ولا يعني أن الظاهر برقوق نجح في تكوين جبهة إسلامية.

فصحيح أن هناك قبولًا وارتياحًا أبداه الجراكسة تجاه الانتصارات العثماني على الأوربيين، وصحيح أيضًا أن السلطتين الجركسية والعثمانية كان يجمعهما روح التوافق في بداية الأمر، وتبادلا الهدايا، وخرج المبعوثين من قبل السلطان العثماني إلى السلطان المملوكي الظاهر برقوق سنة 796هـ/1388م، بقصد تحذيره من تحركات تيمورلنك، على أن ذلك كله لم يمنع سلاطين العثمانيين من أن يتجهوا صوب أراضي الدولة المملوكية لنشر أطماعهم وتحقيق استراتيجيتهم القائمة على التوسع، وأكبر دليل على ذلك نجاحهم في عهد بايزيد في دخول ملطية سنة 803هـ، التي كانت مشمولة بالحماية التركية، الأمر الذي جعل السلطان فرج بن برقوق يعلن استياءه إزاء مقاصد العثمانيين التوسعية، ولم يكن الأمر مقصورًا على ذلك، بل تطور الأمر حتى رأينا كبار الأمراء في مصر يحذرون السلطان من ذلك لاتجاه العثماني الذي أظهر نواياه العدوانية تجاه المماليك.

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أنه إذا كان هناك توافق بين العثمانيين والجراكسة، فإنما يرجع إلى هاتين القوتين قد تعرضتا لعدو واحد مشترك وهو تيمورلنك الذي شن غاراته على كثير من أراضي الدولتين.

ويصدق ما ذهبنا إليه على ذلك التقارب الذي نشأ بين السلطان المملوكي والسلطان العثماني من جهة، وبينهما وبين زعيم التركمان(الشاه السوداء) "قرا يوسف"، ذلك أن الأخير كانت تربطه علاقات عدائية بتيمورلنك، وكان من أكبر مظاهرها تعرضه للنفي بأمر تيمورلنك، ولم يجد أمامه سوى التحالف مع العثمانيين، وكان طبيعًا أن يحدث نوع من التحالف بين هذه القوى الثلاث إزاء أطماع تيمورلنك.

ويمكن لنا أن نقسم أطماع الجراكسة تجاه الخطر التيموري إلى مرحلتين أولاها: يمثل تهديدات بين الجانبين عن طريق تبادل الرسائل المعلنة، فكان تيمورلنك يراسل برقوق برسائل يهدده فيها إذ لم يذعن لأوامره، ويخضع لإرادته في حين كان برقوق لا يعبأ بمثل هذه الرسائل، ويرد عليها بتهديد قائلًا له(لا سمع لكم ولا طاعة).

كما أن هذه المرحلة من السياسة المملوكية تجاه أخطار تيمورلنك تتسم بالهدوء، دونما حدوث مواجهة عسكرية بين الجانبين، حيث اكتفى كل جانب بالوقوف على أحوال الآخرين ويرجع ذلك إلى ظروف كليهما، ذلك أن تيمور لنك لم يمض في طريقه بعد دخوله العراق لضرب السلطنة المملوكية في بلاد الشام، إذ شغل نفسه بتوسعاته في الهند مما كان له أثر كبير في تأجيل الصدام بينه وبين السلطان المملوكي، ولما عاد من الهند اتجه صوب بغداد من جديد سنة 801هـ/1399م، لإخضاع أحمد بن أويس الذي شكل مع برقوق تحالفًا معًا مكنه من استرداد عرشه والتغلب على الحامية التي تركها تيمورلنك في بغداد. أما برقوق فكان مشغولًا هو الآخر بالمشاكل لتي ألمت بمصر والشام سياسية كانت أم اقتصادية، فضلًا عن انشغاله بإعداد العدة لمواجهة الخطر التيموري، وظل على مقدوره ما يرقى إلى مواجهة أخطار تيمورلنك، ومن ثم نجح هذا الأخير في دخول بغداد سنة 802هـ، وضرب الجيوش الشامية المتحالفة مع أحمد بن أويس.

أما المرحلة الثانية إزاء الخطر التيموري، فإنها تشكل أزمة خطيرة في تاريخ دولة المماليك في مصر والشام، ذلك أن القتال في تلك المرحلة لم يأت ثماره لما واكبه من احداث تتسم بالغوغائية والانقسامية من جانب آخر، ففي الأولى، لم ير السلطان فرج بدا من توفير المال طلبًا للمواجهة إزاء ما ألم ببلاده من أزمات، فلجأ إلى فرض ضرائب استثنائية على التجار، فضلًا عن قبوله لحل نصف الأوقاف، وارتكب الأمراء المكلفون بجباية الأموال أعمالًا غوغائية كانت لها أسوأ الأثر في نفوس الأهالي، أما الثانية فتشير إلى تصدع الجبهة الموحدة التي كانت على عهد برقوق وذلك بتحذير الامراء لسلطانهم الصغير فرج بن برقوق من نوايا العثمانيين الذين استولوا على ملطية، فضلًا عن ذلك الانقسام الذي حدث في الجبهة الداخلية على أثر اندلاع الثورات الشامية التي تجددت في وجه فرج بعد وفاة أبيه.

وكانت لهذه الأسباب التي سقنها أسوأ الأثر على الدور المماليكي إزاء الخطر التيموري، ذلك أنه لم يكن دافعًا حاسمًا حيث بذل النواب الشاميون قُصارى جهدهم في وقت كان فيه السلطان بعيدًا عنهم.

كان طبيعيًا أن يشرع تيمورلنك في غزو أراضي الدولة المملوكية تتويجً لأعماله التوسعية منتهزًا حالة الضعف التي منيت بها هذه الدولة فاستولى سنة 803هـ/1400م على سيواس ومرعش وعينتاب، وسرعان ما دخل حلب في الربيع من السنة نفسها، ومنها على دمشق وظل بها ثمانين يومًا، غير أنه ما لبث أن رحل عنها في 2 شعبان 803هـ/1401م، طالبًا اصلح على قاعدة تبادل الأسرى شريطة أن تضرب عمله باسمه، وانتهى الأمر على هذا النحو بأن غادر تيمور لنك الشام دون أن يدخل مصر أو يحكمها، حيث أخضع في طريق عودته السلطان بايزيد العثماني في أنقرة 804هـ، وأعاد فتح بغداد، ثم عاد إلى بلاده حيث توفي في سمرقند سنة 807هـ.

والأمر الجدير بالاهتمام، أنه لم يكن للسلطنة الملوكية دور حاسم في دفع هذا الخطر، اللهم إلا ما أمدنا به المعاصرون عن ذلك اللقاء الذي جرى بين الفريقين في واقعة دمشق سنة 803هـ/1401م في المرحلة الأخيرة من هذا الصراع بما يبين لنا أنه قد حدث التحام أصيب فيه الجيش المملوكي بخسارة فادحة، غير أن السلطان فرج بن برقوق لم يظهر شجاعته وترك ميدان القتال بعد أن أوقع تيمور لنك الفتنة في صفوف أمرائه، مما أتاح لهذا الأخير فرصة دخول المدينة وعاث فيها فسادًا، وأعمل السيف في رقاب الأهالي، واستولى على دروبها وحاراتها وضياعها وبساتينها.

هذا وقد ألحق الغزو التيموري للبلاد الشامية أضرارًا جسيمة بأحوال مصر الاقتصادية والاجتماعية، ذلك أنه لم يكن تأثير ذلك الغزو مقصورًا على إزعاج السلطنة المركزية الحاكمة في مصر، بل امتد إلى العناصر السكانية وحياتها العامة، إذ كان من الطبيعي أن يلجأ السلطان في مصر لعقد مجلس في ربيع الأول 803هـ للمداولة في أمر توفير المال اللازم طلبًا للقتال في وقت كانت الظروف أمامه غير ميسورة إزاء ذلك الضعف الذي مني به نظامه الإقطاعي من جراء الكوارث والمحن التي دهمت البلاد المصرية، وكان طبيعيًا – أيضًا– أن يفرض ضرائب استثنائية على الفئات المميزة في مصر خصوصًا التجار، ويقبل على حل نصف الأوقاف دونما إذعان لفتاوى القضاة،

وهكذا اسند السلطان تلك المهمة للأمير يلبغا السالمي، فشرع هذا الأخير في تحصيل الأموال، حيث يشير المقريزي (ت845هـ) والعيني(ت 855هـ)، إلى أنه جنح في سبيل الوصول إلى ذلك إلى تخصيص ضرائب استثنائية شملت سائر أراضي مصر، من اقطاعات الأمراء وبلاد السلطان ونواحي الوقف، وأخباز الأمرء، فضلًا عن ما أقدم عليه من جباية ما يماثل أجرة شهر من سائر أملاك القاهرة، ومصر وظواهرها، كما فرض على التجار أموالًا على سبيل القرض وصار (يكبس الفنادق وحواصل الأموال في الليل)، وفي تلك الحال كان يتم فتح المخازن الخاصة بأثرياء القوم ممن يخزنون الذهب والفضة والفلوس، فضلًا عن ما أقبل عليه من حواصل الأوقاف، وكان ينكل بهؤلاء الذين لم يعنوا لأداء الجباية، كما يتم الاستيلاء على جميع ما في خزانتهم من أموال في حين كان يسمح بجباية نصف أموال الحاضرين من الذين أذعنوا لطلب الجباية من أصحاب الأموال.

ولما أيقن السلطان فرج ما أحل بالناس في مصر من جراء سياسة يِلْبُغا التعسفية نكل به، وأمر بمحاكمته في ذلك الوقت الي انشغل فيه بالخروج إلى الشام، غير أن لم يدرك ذلك إلا في الوقت الي أخذ يزحف فيه بتيمور لنك على دمشق.

يتضح لنا مما تقدم أن السلطان في مصر لم ير غضاضة إزاء ما أحدثه نظامي الإقطاعي من ضعف ميزانية الدولة من إرسال حملات لنواحي البلاد لتحصيل الأموال لتغطية نفقات الجند لدرء الخطر التيموري الواقع على الشام، غير أن أعضاء هذه الحملات كثيرًا ما تلجأ من وراء ذلك إلى تحقيق مآربها الشخصية في جمع الأموال بصورة لا تقل عن عمليات القرصنة، وهو أمر يعكس لك الضرر الي أحدثه النظام الإقطاعي المملوكي بسائر الفئات في مصر، حتى بلغ الأمر فيما ذكره المقريزي أنه (اشتد الضرر... وكثر دعاء الناس على السالمي، وانطلقت الألسنة بترفه وشتمت القالة فيه، وتمالأت القلوب على بغضه).

ومما هو جدير بالملاحظة أن جباية الأموال التي أقبل عليها السالمي على تلك الحال كانت لها أسوأ الأثر على روح التضامن الاجتماعي التي سادت عصر المماليك، ذلك أن هذه الإجراءات التعسفية شملت أهل الذمة مما أضر بروح الوفاق التي سادت العلاقات بين تلك العناصر والسلطة الحاكمة في مصر.

كما كان للإقبال على حل بعض الأوقاف أثر بالغ الخطورة على روح التضامن الاجتماعي، إذ كان من الطبيعي أن تقل على أثر ذلك الجهود التي خصصت لمجالات الرعاية الاجتماعية، والتي كان للأوقاف دور كبير في تدعيمها، والمعروف أنه حدث تدهور للأوقاف في بداية القرن التاسع الهجري، وواكب هذا التدهور أحداث الغزو التيموري للأراضي الشامية.

كما أحدث ذلك الغزو تحولًا في التركيب الاجتماعي في مصر، إذ كانت مصر موطنًا للفارين من سكان بلاد الشام، والعناصر المماليكية من بطش الغزاة، وكان طبيعيًا في ظل هذه الأزمة أن تفكر السلطة الحاكمة في مصر في إيجاد مخرج إزاء هذا التحول حتى يجد هؤلاء الفارون القادمون ملاذا لهم في أماكن يشغلونها.

وقد أفقد الغزو التيموري بطريق غير مباشر النظام النقدي توازنه في مصر والشام، ذلك أن أعمال النهب التي شنها العسكر التيموري شملت الدراهم والدنانير في حين أبقت على الفلوس النحاسية بأيدي أصحابها، مما أحدث أزمة لكثرة الطلب على العملات الذهبية والفضية للصرف على الجيوش، وأضر ضررًا بالغًا بحياة الناس في مصر والشام، وأدى إلى تضخم خطير أدى إلى ارتفاع الأسعار.

على أية حال، لم تحدث – بوفاة تيمور– مواجهة عسكرية بين المماليك والتيموريين غير أن العلاقات استمرت في توتر بين السلطان المملوكي بَرْسْبَاي(825–841هـ/1432–1437م)، وبين شَاه رُخّ حول النزاع على كسوة الكعبة، وأطماعهما في منطقة الفرات العليا، ولم ينته النزاع بين الطرفين بوفاة بَرْسْبَاي، إذ ظل مستمرًا بين السلطان جَقْمَق(842–857هـ/1438–1453م)، وشَاه رُخّ، على أن سرعان ما تحول إلى المسالمة بحيث غدت العلاقات بين الجانبين قائمة على الود واللين حتى وفاة شَاه رُخّ 851هـ، لما أبداه جَقْمَق من حسن النوايا بمسامحة لشَاه رُخّ في بإرسال كسوة الكعبة.

2–تجاه الصليبيين:

اشتد غضب البابوية، ودعت إلى محاربة دولة المماليك، وعولت على أن تكون تلك الحرب الشاملة بهدف القضاء على المسلمين لتفويض المكانة التجارية لدولة المماليك وغزوها في البحر،

وأدت قبرص التي لجأ إليها الصليبيون الفارون من الشام دورًا خطيرًا في القرن الرابع عشر الميلادي في هذا الميدان، وتصدى ملكها هنري الثاني لهذه المهمة، وراسل البابوية في شأن حصار المماليك، واستمر الجانبان في نزاع مستمر حتى نجح الصليبيون بقيادة بطرس الأول لوزجنان في دخول الإسكندرية سنة 1365هن منتهزًا خالة الضعف التي كانت تمر بها دولة المماليك في عهد سلطانها الصغير الأشرف شعبان، وأعمل الصليبيون السيف في رقاب السكندريين، وأفسدوا في المدينة، وأتوا على الأخضر واليابس، وأوقعوا في الأس من المصريين عدة آلاف، وقفلوا عائدين إلى قبرص بعد أن سمعوا بزحف الجيش المملوكي من القاهرة.

أيقن المماليك أن غزو قبرص أمر بالغ الضرورة لما لها من أهمية في تأمين تجارتهم في البحر المتوسط وتصفية بقايا الصليبيين كما أيقنوا أيضًا الخطورة التي تهدد دولتهم في مصر والشام من تواجد الإسبتارية في جزيرة رودس.

تولى الجراكسة مهمة تصفية القواعد الصليبية في قبرص ورودس، ونجحوا في عهد السلطان برسباي في الإغارة على قبرص، فأرسل هذا السلطان ثلاث حملات بحرية لغزوها، وكانت آخر هذه الحملات سنة 829هـ/1426م، حيث أنزل المماليك هزيمة ساحقة بالقبارصة، وأجبروا ملكها جانوس على التسليم وحملوه أسيرًا إلى القاهرة بعد أن طوقوا ليماسول ونيقوسيا.

وانتهى الأمر بأن أطلق برسباي سراج جانوس(830هـ/1427م)، وألزمه بأداء الدية والاعتراف بسلطنة المماليك وصارت قبرص منذ ذلك الوقت تدين بالتبعية لسلطنة المماليك الجراكسة، ومن المناطق المشمولة بالحماية المماليكية حتى سقوط دولة المماليك 923هـ/1517م.

لما تولى السلطان الظاهر جَقْمَق شلطنة المماليك 842هـ/1434م، عول على استكمال جهود برسباي بغزو رودس وقمع الإسبتارية، ومهد لذلك بتحسين علاقته مع التيموريين، وتوطيد نفوذه بقمع المناوئين لحكمه في مصر والشام، وأعد جَقْمَق عدته، وشن على رودس ثلاث غارات بحرية كان آخرها سنة 848هـ/1444م، حيث حاصر المدينة أربعين يومًا، وأمد الغرب المسيحي الإسبتارية بإمدادات عسكرية، وانتهى الأمر بالصلح بين الطرفين، وأخفق المماليك في تحقيق النصر على الإسبتارية، ومنيت دولتهم بعدة نكبات في القرن الرابع عشر الميلادي، مما حال دون قيامها بدورها المعهود في الذود عن الإسلام في ميدان الجهاد.

3–تجاه العثمانيين:

كما بدأ الخطر العثماني يظهر بوضوح على سلطنة المماليك في عهد السلطان قايتباي الذي لم يعد قادرًا على مواجهة هجمات العثمانيين المتكررة على إثر الضعف الذي ألم بمصر من جراء الأزمات الاقتصادية؛ وعلى الرغم من ذلك فقد اضطر قايتباي الدفاع عن أراضيه وإرسال حملات عسكرية ضد العثمانيين، كانت الأولى بقيادة الأمير أزبك الذي استطاع هزيمتهم في سنة 891هـ/1486م، وأسر عددًا كبيرًا من العثمانيين من بينهم القائد أحمد بك بن هرسك(68). ثم أرسل السلطان قايتباي الحملة الثانية بقيادة الأمير أزبك وأرسل السلطان بايزيد أسطولا أخذ يقترب من إسكندرونة ميناء حلب لكي يقطع الطريق على حملة أزبك القادمة من مصر، غير أن عاصفة اجتاحت هذا الأسطول فأغرقت معظم سفنه ونجح أزبك من تحقيق الانتصار ودخول أذنه والاستيلاء بعد حصار دام ثلاثة أشهر، وأسر وغنم واحتفلت القاهرة بهذا النصر الثاني سبعة أيام(69).

وجد العثمانيون فرصة رحيل العسكر المصري فاستولوا على طرسوس وسيس وغيرها من البلاد الحلبية، مستغلين سوء الأوضاع الاقتصادية في الدولة المملوكية وثورات المماليك الجلبان، وانتهى الأمر بعقد الصلح الذي قبله بايزيد الثاني حتى يتفرغ لفتوحاته في أوربا، وذلك في سنة 894هـ/1489م. ويبدو أن الصلح لم يكن سوى خديعة من قبل العثمانيين حيث قاموا بالتقدم نحو الأراضي المملوكية، فأرسل قايتباي حملة كبيرة بقيادة الأمير أزبك، وطلب منه معرفة نوايا العثمانيين في الصلح، فأرسل ماماي الخاصكي إلى المعسكر العثماني، ولما استبطأ عودة قاصده، تحرك بجيوشه وحمل على العثمانيين حملة عنيفة، واستطاع أن يستولى على بعض القلاع ، ثم عاد إلى القاهرة في مستهل المحرم 896هـ/نوفمبر 1490م، وهذه هي الهزيمة الثالثة التي أنزلها بالعثمانيين، وآخر الحملات التي أرسلها قايتباي بقيادة الأمير أزبك(70).

---

(68) ابن إياس: بدائع الزهور، ج3، ص226.

(69) ابن إياس: بدائع الزهور، ج3، ص261-262؛ إبراهيم طرخان: مصر في عصر المماليك الجراكسة، ص170-171.

(70) إبراهيم طرخان: مصر في عصر المماليك الجراكسة، 172-173.

انتهى الأمر بعقد الصلح بين الطرفين، على أن هذا الصلح لم يدم طويلاً، وعاد العداء بين العثمانيين والمماليك لعدم ارتياح وقبول العثمانيين لذلك الموقف الذي أبداه سلطان المماليك في مصر من النزاع الصفوي العثماني، ولما تمكن السلطان سليم الأول من إخضاع الصفويين بعد موقعة جالدران(تشالدران) سنة920/ 1514م، ثم القضاء على إمارة ذي القدر(دلغادر) سنة921هـ/1515م، تفرغ لقتال المماليك، وسار على رأس جيش إلى سوريا وواجه قوات السلطان الغوري، وكانت الخيانة من قبل خاير بك نائب حلب؛ وجان بردي الغزالي نائب حماه، وانسحابهما من المعركة، بالإضافة إلى إشاعة موت السلطان الغوري، وموت الأمير سيباي نائب الشام في المعركة مما أضعف معنويات الجيش المملوكي، بالإضافة إلى تملك الجيش العثماني للأسلحة والمدفعية الثقيلة، فلحقت الهزيمة بالمماليك في مرج دابق رجب 922هـ/أغسطس1516م، ثم زحف سليم الأول جنوبًا فاستولى على حلب وحمص وحماه ثم دمشق حيث نودي به خادمًا للحرمين.

رفض طومان باي – الذي تولى السلطنة المملوكية في مصر – الخضوع للسيادة العثمانية، فسار إليه السلطان سليم الأول العثمانيين من دمشق مارًا بسيناء ودخل الدلتا وواجه قوات المماليك في الريدانية 29 ذي الحجة سنة 922هـ/1517م.

أثبت المماليك جسارة في الميدان في بداية المعركة، لكن العثمانيين ألحقوا بهم الهزيمة ودخلوا القاهرة حيث كانت المقاومة المملوكية على أشدها، وحاول السلطان العثماني التخفيف من حدة هذه المقاومة بمنح طومان باي حكم بلاد الصعيد تحت السيادة العثمانية، لكن طومان باي أبدى رفضه، وانتهى الأمر بهزيمته على أيدي القوات العثمانية وفراره إلى البحيرة حيث اختفى عن عند حسن بن مرعي شيخ العرب هناك، الذي سلمه إلى العثمانيين وهنا تتكر الخيانة مثلما فعل خاير بك وجان بردي الغزالي مع الغوري، وبعد ذلك شنق طومان باي على باب زويلة في ربيع الأول 923هـ/أبريل 1517م، وأصبحت مصر ولاية عثمانية.